

أبو العلاء المعري

دفاع الورع ابن العميم عنه

ملزمة طبعه ونشره

دار سعاد مصير للطباعة والنشر

٧٢ شارع القنطرة — تلفون ٤١٤٥٥

١٩٤٥



رهبين المحبين

الأهداء

إلى زعيم التجديد والمفكر الحر الدكتور طه حسين بك

اعترافاً بفضل العظم على الدراسات الأدبية ، وعلى البحوث
العلائية بصورة خاصة .

« سى »

من رصاص القدماء
في عقيدة أبي العلاء

لحى الله قوماً إذا جئتهم بصدق الأحاديث قالوا : كفرا
المرى

المرى جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبت .
الشيخ كال الدين الزمكاني

دخل على أبي العلاء الوزير المشهور بالنازى ، فسأله :
ما هذا الذى يرويه الناس عنك ؟
قال : قومٌ حسدوني فكذبوا على .
فأجاب النازى :

وعلى مَ حسدوك ، وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟
قال النازى :

قال أبو العلاء : والآخرة ؟
ثم أطرق ، ولم يكلمنى حتى قُتُّ عنه .

أفضلُ مَنْ رأيتُه مِمَّنْ قرأت عليه : أبو العلاء
أبو زكريا التبريزى اللغوى

لزمت مسكنى منذ سنة أربعائة ، واجتهدت أن أتوفر على
تسبيح الله وتحميده ، إلا أن أضطر إلى غير ذلك .
أبو العلاء

قال الحافظ السلفى :

« ومما يدل على صحة عقيدته ما سمعت من الخطيب حامد بن بختيار
الشميرى بالشمسانية — مدينة بالخابور — قال : سمعت القاضى
أبا المنهذب عبد المنعم بن أحمد السروجى يقول :
سمعت أخى الفاضل أبا الفتح يقول :

دخلت على أبى العلاء التنوخى بالمرعة ذات يوم ، فى وقت خلوة
بغير علم منه ، وكنت أتردد إليه ، وأقرأ عليه ، فسمعته وهو ينشد
من قبليه (١) :

كم بُودرت غادةً كعابٌ وعُمرت أمها العجوزُ
أحرزها الوالدانِ خوفاً والقبرُ حرزٌ لها حريرُ
يجوزُ أن تُبسطى المنايا والخلد فى الدهر لا يجوزُ
ثم تأنوه مرّات ، وتلا قوله تعالى :

« إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يومٌ مجموع

(١) هذه الايات من شعره فى ملقى السيل

له الناس ، وذلك يومٌ مشهود ، وما تؤخّره إلا لأجلٍ معدودٍ ،
يوم يأتٍ لا تكلم نفسٌ إلا بإذنه فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ ،
ثم صاح وبكى بكاءً شديداً ، وطرح وجهه على الأرض زماماً ،
ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال :

سبحان من تكلم بهذا في القِدم ! سبحان من هذا كلامه !
فصبرت ساعة ، ثم سلمت عليه ، فردّ وقال : متى أتيت ؟ فقلت :
الساعة . ثم قلت : أرى ياسيدنا في وجهك أثر غيظ ! فقال : لا
يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئاً من كلام المخلوق ، وتلوت شيئاً من
كلام المخلوق ، فلحقني ما ترى . فتحققت صحة دينه ، وقوة يقينه .
الذهبي

« وله مصنفات كثيرة ، أكثرها في الشعر ، وفي بعض
أشعاره ما يدلّ على زندقته وانحلاله من الدين ، ومن الناس من
يعتذر عنه ويقول : إنه إنما كان يقول ذلك مجوفاً ولعباً ، ويقول
بلسانه ما ليس في قلبه ، وقد كان باطنه مسالماً »

البداية والنهاية لابن كثير

« .. وصنف بعض الأعلام في مناقبه كتاباً ، وسماه « دفع
 المرأة » ، عن شيخ المعرفة » ، وفي هذين الكتابين فصول من
 نوادر دكانته ، وإجابة دعائه ، والاعتذار عن طعن أعدائه .
 وأنا كنت أتعصب له ، لكونه من المعرفة ، ثم وقفت له على
 كتاب « استغفر واستغفرى » ، فأبغضته ، وازددت عنه نفرة ،
 ونظرت له في كتاب « لزوم ما لا يلزم » فرأيت التبرى منه أحزم
 فإن هذين الكتابين يدلان على أنه كان لما نظمهما هائماً حائراً
 ومذبذباً نافراً ، يقر فيهما أن الحق قد خفي عاينه ، ويودّ لو ظفر
 باليقين ، فأخذه بكلتا يديه . كما قال في مرثية أبيه :

طلبتُ يقيناً من جُهيمة عنهم ولم تخبرني يا جُبين سوى الظنِّ
 فإن تعهدني لا أزال مسائلاً فاني لم أعطَ الصحيح فأستغنى

ثم وقفت له على كتاب « ضوء السقط » ، الذي أملاه على
 الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني ، الذي لازم
 الشيخ إلى أن مات ، ثم أقام بحلب يروي عنه كتبه . فكان هذا
 الكتاب عندي مصلحاً لفساده ، موضعاً لرجوعه إلى الحق وصحة
 اعتقاده ، فإنه كتاب يحكم بصحة إسلامه مؤولاً ، ويتلو لمن وقف
 عليه بعد كتبه المتقدمة « وللاخرة خير لك من الأولى » ، فلقد

ضمّن هذا الكتاب ما يثلج الصدر ، ويلذّ السمع ، ويقرّ العين ،
ويسرّ القلب ، ويطلق اليد ، ويثبت القدم ، من تعظيم رسول الله
«ﷺ» خير بريته ، والتقرب إلى الله بمدايح الأشراف من ذريته ،
وتبجيل الصحابة والرضا عنهم ، والأدب عند ذكر ما يتلقّى منهم ،
وإيراد محاسن من التفسير ، والاقرار بالبعث ، والاشفاق من اليوم
العسير ، وتضليل من أنكر المعاد ، والترغيب في أذكّر الله
والأوراد ، والخضوع للشيعة المحمدية وتعظيمها ، وهو خاتمة
كتبه ، والأعمال بخواتيمها .

وقد يُعذر من ذمّه ، واستحل شتمه ، فأنه عول على مبادئ
أمره ، وأواسط شعره . ويعذر من أحبه ، وحرّم سبّه ، فأنه اطلع
على صلاح سرّه ، وما صار إليه في آخر عمره : من الانابة التي كان
أهاسها ، والتوبة التي تجبّ ما قبلها
وكان يقول — رحمه الله — : أنا شيخ مكذوب عليه .

ابن الوردي



قال غرس النّعمة :

وأذكر عند ورود الخبر بموته ، أننا قد تذاكرنا إلحاده ، ومعنا
غلامٌ يعرف بأبي غالب بن نهبان ، من أهل الخير والفقّه ، فلما كان
من الغد حكى لنا قال :

رأيت في منامى البارحة شيخاً ضريراً ، وعلى عاتقه أفيانٍ
متدليان الى نخذه ، وكل منهما يرفع فيه الى وجهه ، فيقطع منه
لحماً يزدرده ، وهو يستغيث . فقلت وقد هالني : من هذا ؟
ف قيل لي : هذا المعري الملهد !

الذمعي



«وكم من زنديق في قلبه حقدٌ على الاسلام، خرج فبالغ واجتهد
فزخرف دعاوى يلتقي بها من يصحبه ، وكان غور مقصده في
الاعتقاد الانسلاخ من ربة الدين ، وفي العمل نيل الملذات ،
واستباحة المحظورات . فمنهم بابل الخرمي ...
ومنهم من لم يبرح على تعثره ، ففاته الدنيا والآخرة ، مثل
ابن الراوندي ...

وأما أبو العلاء المعري فأشعاره ظاهرة الاحداد ، وكان يبالغ
في عداوة الانبياء ، ولم يزل متخبطاً في تعثره ، خائفاً من القتل ،
إلى أن مات بخسرانه .



.. وقد رأيت لأبي العلاء المعري كتاباً سماه « الفصول

والغايات « في معارضة السور والآيات ، على حروف المعجم في آخر
كلماته ، وهو في غاية الركاقة والبزودة ، فسبحان من أعمى بصره
وبصيرته ! »

ابن الجوزي

رفض الدنيا وما سلم ، ورفض غاياتها فعمل بما علم ، وتداوى
باليأس من مطامعهم ، ودارى الناس بترك حظه لهم ، ومع هذا ظلم .
ابن فضل الله العمري

قال ابن الجوزي :

قال لي المعري :

وحدثت عن أبي زكرياء أنه قال :

ما الذي تعتقد ؟

فقلت في نفسي : اليوم يتبين لي اعتقاده !

فقلت له : ما أنا إلا شاك !

فقال : وهكذا شيخك . . .

أبو القلاء الفكر

أبر العلاء في رآة هاسر

حين أطلق فيلسوف المعرفة لفكره العنان في الكشف عن خصائص الطبع البشرى ، وتمزيق الغشاء الذى يحجب حقائق المعتقدات ، قامت عليه دنيا العقول المتحجرة ، وأخذت الأفهام البليدة ترميه بالزندقة وتسلقه بالسنة حداد ، ولم يتورع خصومه أن يلصقوا به التهم جزافا وينعتوه بأبشع النعوت .

قال بعضهم : من هذا الأعمى الذى يتجرأ على قدسية المعتقدات ؟ وقال آخرون : من هذا الملحد الضال الذى حرّم أكل اللحوم وذبح الحيوانات ؟ أ يكون أرقّ عاطفة وأدقّ فهماً من الرسل والأنبياء ؟ ... وانها لوا عليه سباً وكيدا ، ولم يتورع صاحب « فلك المعانى » أن ينعتة بالعتة والجنون^(١) كما نعتة القاضى أبو جعفر بما هو أبشع من العتة والجنون^(٢) .. فمن قصص

١ - معجم الادبا - ج ١ ص ١٩٤ طبعة مرغليوث ، وفي عصرنا هذا نعت زكى مبارك أستاذة الدكتور طه حسين بالجهل كما نعت الاستاذ أحمد أمين مؤلف فجر الاسلام بجنايته على الادب ، والله فى خلقه شؤون !

٢ - الباخرزى فى دمية القصر ، وقد نقل هذا النص المرحوم أحمد تيمور باشا فى كتابه « أبر العلاء » ص ١٢٦ .

مزرية تصوره في طليعة المعطلة ، الى أحاديث مختلفة تصوره في
عين الدهاء آلة تهدم أسس الدين ، إلى غير ذلك مما يضعه في زمرة
الكفرة المتهمين !

ولم يعبأ شاعرنا بقالة خصومه ، وهو الذى خبر الناس وعرف
طوايا البشر ؛ كان لا يسأل عن هذا ولا ذاك ، لقد لزم بيته بعد أن
طوّف في مختلف البلدان وبلغ القمة من المجد العلمى والأدبى . نعم ،
لزم بيته ، أو قل لزم سجنه الضيق يتلى فى الأدب والحكمة والفلسفة .
وكأنه كان يقول : ما شأنه والجدل ؟ إن غيره من كبار المفكرين
والهداة المصلحين قد مرّوا بهذه الطرق الشائكة . والمفكر الحر
من لا يعطى للجهال ومنهم فى طبقهم أية قيمة ، ومن لا يصغى الى
تقيهم ، ومن لا ترتعد فرائضه أمام صيحاتهم ، بل عليه أن يسير
فى النهج السوى يكتب ليقوم الطبع البشرى وليسمو به فى
طريق الكمال .

وقد أملى المعرى فى ذلك آيات صادقة ، أملى اللزوميات
وأملى الفصول والغايات ، وأملى ملقى السبيل ، بل أملى عشرات
الرسائل ومئاتها ، وكلها تصوير دقيق لطباع البشر وأهوائهم —
هذه الطباع التى استعصى إصلاحها على الحكماء ، وعجز الفلاسفة

وحتى الأنبياء عن تقويم عوجها . أترى يظل الطبع البشرى فى انحرافه واعوجاجه ؟ أم ماذا ؟ لا أعلم . . فمن عهد الأغرقة ، ومن قبل الأغرقة بمئات الأحقاب إلى يومنا هذا ، كتب آلاف المفكرين فى ختل البشر وخساسة طبعه وفيما يؤدى إلى تقويم هذا الطبع ، ولكن الانسان ظل كما هو ، ظل فى عنجهيته الأولى . والذى أعتقده أنه سيظل على انحرافه اليوم وغدا وإلى أن تطوى البشرية ويلفها العنم فى طياته الجون . وإن صيحات الفلاسفة والمفكرين ، ومحاولات الساسة والمصلحين ، ماهى إلا نزوات ألم أحيانا وبوارق أمل أحيانا أخرى — ألم مما تعانیه البشرية من انحدار ، وأمل فى الاصلاح والتسامى بالانسان إلى مثل عليا .

هذه الآلام التى جاشت فى صدر المعرى فأملأها وذهبت آية فى الإبداع والخلود ، هى التى ألّبت عليه خصومه فأوغلوا فى سبه واتهجم عليه ، وعدّوه فى زمرة الضالين المعطلين ، وهى التى وضعته أيضا فى مصاف العباقرة فزاد محبوه وتلامذته ورفعوه إلى مرتبة الهداة المصلحين . نعم ، كان المنصفون يتلون ما أملاه بفهم ووعى ، وكان الجاحدون يفسرون أقواله تفسيراً ضيقاً يتلاءم وخبلهم . وهذا الذى جملة يخاطبهم بقوله :

لحى الله قوما إذا جئتهم بصدق الأحاديث قالوا : كفر
وتشتد ثورته فيصرخ :

أما فى الأرض من رجل لبيب فيفرق بين إيمان وكفر
أما فى الأرض من رجل لبيب ؟

مهلا شيخنا الحكيم ، وخفف قليلا من تشاؤمك ، فلم تخل
الأرض فى يوم ما من رجل لبيب منصف يفرق بين الايمان
والكفر . وها هوذا نصيركم ، ابن العديم ، المؤرخ الحلبي ينبرى
للدفاع عنكم بعد قرنين من وفاتكم ، يكتب سيرتكم ويرد على
خصومكم ، فنجد هذا اللبيب المنصف الذى يفرق بين الايمان والكفر .
لقد كتب ابن العديم رسالته الطريفة « الانصاف والتجرى ،
فى دفع الظلم والتجرى ، عن أبى العلاء المعرى » فكانت من أبلغ
ما كتب عن فيلسوف المعرة فى القرن السادس للهجرة

ولدفاع ابن العديم قيمته : فهو قريب العهد بالمعرى ، وهو
حلبي ، وهو أديب واسع الاطلاع ، وفقه مجتهد ، وعالم متزن الفكر ،
وشاعر يتذوق الأدب ، ويملك ناصية الصنعة ، ومؤلف كتب فى
شؤون الفكر ، كتب فى التاريخ فأبدع ، وكتب فى غير التاريخ

فأطرب ، وقد قرأ جميع كتب المعرى أو أكثرها قراءة فهم ووعى ،
فآلمه أن يصبح هذا الفيلسوف الحكيم مضغة في أفواه الجهلاء ، وأن
تفسر آراؤه على غير مقصدها ، فها هي وجهة دفاع هذا المؤرخ
الأديب عن شاعرنا الفيلسوف الحكيم ؟



قبل الالماع إلى ذلك نريد أن نقول كلمة في ابن العديم ، في
نشأته ، في مكانة بيته ، في مؤلفاته وفي عصره ، فيما رافق هذا العصر
من أحداث سياسية ، فإن الحديث في ذلك لا يقل طلاوة عن الحديث
عن أبي العلاء .

كمال الدين الفضل

ولد كمال الدين بن العديم في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة سنة ٥٨٨ هـ في مدينة حلب ، ولولادته ، أولطفولته ، قصة تروى الحديث عنها بعد أن نلغ إلماعا سريعا إلى مكانة عائلته ، هذه العائلة التي اشتهرت بالعلم والفضل ، وكان منها الشاعر والأديب والقاضي . وكما اشتهرت عائلة أبي العلاء بهذه الخصائص الفاضلة ، اشتهرت عائلة ابن العديم بهذه الخصائص أيضا . وقد نذكر عشرات من آل العديم وآل المعري وكلهم أديب : شاعر ، فاضل . وهذه ميزة تختص بها بعض العائلات فتوارث العلم كبرا عن كابر ، ولكل واحد نهجه وطريقته : هذا شاعر ، وذاك فقيه ، وغيره متصوف ، وسواه محدث ، وكلهم فروع زاكية وأغصان باسقة من شجرة كريمة الأصل والنجم . وفي تاريخ الآداب العالمية أسره توارث أفرادها العلم والآداب جيلا بعد جيل ، قال مديشي في فلورانس وآل كوبريلي زاده في استنبول وغيرهم وغيرهم كثيرون

نشأ كمال الدين بن العديم في بيت علم وفضل ، وظل هذا

البيت يتوارث أفراده العلم أربعة قرون كاملة . كان جده الأكبر من سكان البصرة ، نزع عنها بعد المائتين للهجرة في تجارة إلى الشام ، وفي رواية أن طاعونا نزل بالبصرة ، فخرج منها جماعة من بنى عقيل وقدموا إلى الشام فاستوطن جدهم الأكبر حلب ، ومنذ ذلك العهد حتى القرن السادس والسابع وآل العديم في حلب والبلاد العربية تتحدث عن مزايا هذه العائلة . نعم ، منذ ذلك العهد وفروع هذه الشجرة تورق وتؤتي أطيب الثمار ، فأبو المجد ، وأبو الحسن ، وأبو علي ، وأبو البركات وكثيرون من أعمامه وأجداده — كلهم شاعر ، فقيه ، أديب ، له في الحياة العقلية أثر مسطور ؛ ولسنا هنا في مجال الحديث عن تلخيص كل فرد من أفراد هذه العائلة — ولكل واحد سيرة تعبق بالأدب — بل يتناول حديثنا مؤرخ حلب الذي كتب أبلغ دفاع عن شاعر المعرة وفيلسوفها الحكيم .

وإذا كنا أهملنا الكلام عن أفراد عائلته فرداً فرداً فسياق سيرة يقتضي أن نتحدث عن أبيه القاضي أبي الحسن بن أبي جراحة لما في الحديث عنه من ارتباط بسيرة مؤرخنا كمال الدين . لقد كان القاضي أبو الحسن خطيب قلعة حلب في عهد نور الدين محمود بن زنكي ، ثم خازن المملكة على أيام ولده الملك الصالح إسماعيل ، ثم قاضياً

فى أيام الملك الصالح ، وظل قاضياً فى جميع العهود التى تصرمت من من عهد دولة عز الدين إلى عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، أى كانت تزول دولات الملوك ودولة أبى الحسن فى القضاء وطيدة الأركان .

وقد يهم القارئ أن يعلم أن والد كمال الدين قد تولى هذه المناصب الخطيرة : خطيب القلعة وخازن الدولة وقاضى قضاء المملكة وهو فى العقد الثالث من عمره ، ولكن التقاليد « المذهبية » — إن صح هذا التعبير — قد ذر قرنها فى تلك الأيام ، فقد كان قاضى حلب « حنفى المذهب » وكانت الدولة « شافعية » فهل يشفع له علمه ومكانة عائلته فى المحافظة على مركزه فى الدولة ؟ يظهر أن كل ذلك لم يشفع له ، وعُزل عن منصبه ، لا لشيء إلا لأنه « حنفى المذهب » ! ... وما كان ذلك ليؤثر فيه ، لأن له من ثروته وجاهه وعلمه ومركزه ما يغنيه عن التكسب من مال الدولة أو تحمل أعبائها ، وقب فى بيته يقطع الوقت بالمطالعة والدرس والإشراف على أملاكه وزراعتة والإذعان لأحكام القدر

وبينا هو فى هذه الحياة الحرة الطلقة من كل قيد ، إذ نبأ سار ترقص له القلوب . فقد انبثق فجر اليوم العاشر من شهر ذى الحجة

سنة ٥٨٨ هـ عن مولود أشاع البشر في بيت آل العديم .

تقبّل القاضى أبو الحسن هذه البشرى برعشة المضطرب
غير المطمئن ، بكى فرحاً حين مُبشّر بمقدم كمال الدين ، وتساءل
همساً بينه وبين نفسه :

أى سعادة تنتظر هذا الوليد ؟ أتُكتب له الحياة أم يلفه العدم
قبل أن تكتحل عيناه بمباهج الوجود ؟
ولهذه الوسوس قصة سيأتى حديثها بعد قليل .

لُسَاةٌ عَائِلِيَّةٌ

نعم ، ساورت الأب هذه الوسواس حين بشر بمولد كمال الدين ،
وفي غمرة من القلق الحزين انفجرت أساريه عن ابتسامة يردّ فيها
على مهنثيه . لقد أنعم الله عليه بعدة بنات من أجل ما خلق الله ،
وكان برغم حبه لبناته ، في حسرة على وليد يرث هذا المجد العلى
الذى كان ينتقل من الآباء إلى الأبناء ، وكما تقدمت به السن كان يشعر
أن القدر لن يهبه مولوداً ذكراً ... ولكن الأمل كثيراً ما ينبثق
من السجف السود . . . ومن الله على الشيخ بوليد ذكر . . ليس
هذا الوليد مؤرخنا كمال الدين . . لا . . بل الحديث هنا عن أخيه . .
وهو أول مواليد الذكور ، كان غاية في الحسن والجمال والفتنة
والذكاء . وبدهى أن تقوم الدنيا وتقدم - دنيا عائلة يت العديم -
لمقدم هذا الوليد بعد أن استقبلت أكثر من بنت واحدة .

وهذا شعور طبعى ، عند أية أسرة من الأسر ، وطبعى أن
يكون هذا الشعور أقوى عند أسرة ميسرها الله بالمجد والفضل والثروة
والجاه . وهكذا ، فقد كثر المهنثون ، وانما الت الهدايا ، واستقبل الشيخ
هذه النعمة بكثير من الحمد لله تعالى على أن وصل جبل العلم والجاه

بهذا البيت ، وما هذا الحبل الممدود إلا هذا الولد السعيد . . .
ومرّت أيام ، وكأنّ المولى أراد أن يمتحن هذا الرجل ، أن
يتمنّ صبره وجلده على ملاقة الكوارث والأحداث ، ولأمر لا يعلمه
إلا الله — جلت قدرته — استلّ القدر هذا المولود من بين
أحضان أمه ولما يشبّ عن الطوق . وتصور : أيها القارئ ،
أى حزن دهم الأب وأية فاجعة نزلت بالأم ؟ وما حالة هذه الأسرة
التي انقلب فرحها حزناً ، وسعادتها شقاءً ، وأملها يأساً ، ونهارها
ليلاً مظلماً . لقد اسودّت الدنيا في عين هذا الشيخ الكبير ولم يعد
يهتم لشيء من زخارف الدنيا ، فلا المال ، ولا الجاه ، ولا القضاء ،
ولا المجد ، ولا شيء كان يسليه عن فلذة كبده ، وقد حزن حزناً
عميقاً هدّ قواه وأصابه مالم يصب والدّاً على فقد ولده ، فامتنع عن
الطعام والشراب إلا ما يقيم هذا الجسم الضاوي ، وجلس في بيت
مظلم لا يستقبل أحداً ، ولا يفكر في أحد إلا في هذا المصاب الجلل ،
وكان لا يسمع منه غير الأنين والبكاء .. وأى بكاء ؟ .

كانت أيامه تمر بين ترتيل كلام الله العزيز ، والصلاة بخشوع ،
وزيارة المقبرة . وهمّ في يوم ما ، وهو في المقبرة ، وقد غلبه الحنين ،
ولجّ به الشوق ، وعصاه الصبر — همّ أن يخرج فلذة كبده من القبر
ليروى غليل شوقه وينعم برؤيته .

وبالرغم مما كان عليه الشيخ ، من قوة وجبروت ، امتنع عليه الحجر ، ولم يستطع أن يكشف القبر ، وأدرك بإيمان عميق — وهو من صفوة العلماء — أن الله جلت قدرته أراد ذلك شفقة منه على الطفل وعليه ، فزجر نفسه . وعاد متعباً مكدوداً ، عاد إلى البيت يبكي همساً ويصلي ، وما زال حتى ارتقى على فراشه وهو في غاية الإعياء . .

وبدهى وهو في هذه الحالة ، أن يستيقظ عقله الباطن على الرؤى والهواجس ، وطبعى أن تتراءى له الأحلام وهو في غفوته اليقظة ، ورأى في تلك الليلة رؤيا أرعبته أولاً ، ولكن ما لبثت أن شفته من مرضه . .

ماذا رأى ؟

ماذا سمع ؟

رأى ولده . . رأى فلذة كبده ، وسمع صوته .

نعم خيل إليه أنه يخاطبه بقوله :

يا أبى . . عرف والدتى أنى أريد أن أجيء اليكم . .

واستيقظ أبو الحسن مذعوراً ، وركض إلى زوجه يريد إيقاظها ، ولم تكن الأم المفجوعة نائمة ، فهي أشد لوعة على ولدها من أبيه ؛

وما كاد يقصّ عليها نبأ الرؤيا حتى بكيا بكاء شديدا (١)

أكانت هذه الرؤيا إيذانا بانتهاء المصيبة ؟

ألم يكف هذين الأبوين تذراف الدموع ؟

لقد ذاقا حلاوة الحياة ومرارتها فأيقنا أن كل مجد في هذه

الدنيا زائل ما خلا وجه الخالق الكريم ، وأن الحياة مزاج من الخير

والشر ، وأنه لا توجد سعادة كاملة ولا شقاء كامل ، وأن على المرء

أن يدرب نفسه على هذه الأحداث ، أحداث الحياة التي لا ترحم

والتي لا تسير على وتيرة واحدة . وكأنه كان يردد قول أبي العتاهية :

اصبر لدهر نال منك فهكذا مضت الدهور

فرح وحزن مرة لا الحزن دام ولا السرور

وتشاء إرادة المولى — والشيخ على هذه الحالة من صوفيته

المتجردة — تشاء الإرادة الأزلية أن ترأف بهذين القلبين الكسيرين

فتمنّ عليهما بولد نحيف ، ضعيف البنية ، تكاد تحسبه شبحاً من

الاشباح .

ولعل القارئ أدرك أن هذا المولود هو كمال الدين بن العديم

مؤرخ حلب الذي استفاضت شهرته في الآفاق وكان من أمره ما كان .

قال والده :

«عندما ولد كمال الدين لم يكن بقلبي بحلاوة ذلك الأول ، لأنه كان نحيفاً»

وكان الأب ، وقد مرّت به تلك المصيبة قدّر أن هذا الولد لن يسلم له ولن تقرّب به عينه ، ومع ذلك شكر الله على نعمته وفضله ، وبدأ الطفل يحبو ويكبر ، « وكما كبر ، نبل جسما وقدرأ ، ودعا له عدة دعوات ، وسأل المولى له عدة سؤالات ؛ ورأى فيه ، والحمد لله ، أكثرها » ... نعم ، كما نما الطفل وترعرع تضاءلت أحزان الأب . وفي يوم ما زاره أحد أصدقائه المقربين ، وكان الطفل يلعب به ، فما كان منه إلا أن تمنى له أن يراه قاضياً كما كان عليه آباؤه .. ولم تنزل أمنية الصديق من نفس الأب منزل الرضا ، فما كان منه إلا أن أجاب صديقه على البدهاهة بقوله :

« ما أريد له ذلك ، ولكنى أشتهيه أن يكون مدرّساً »

وكان الأب ، وقد ثارت في نفسه تلك النزوة اقمديّة - نزوة تنحيته عن منصب القضاء لمذهبيته - لم يشأ لابنه أن يصبح قاضياً ؛ ولكن الأقدار خيّبت مشيئة الأب وحققت أمنية الصديق الذى تمنى أن يرى ابن صديقه قاضيا ، كما كان آباؤه . ووصل كمال الدين ،

بعد موت أبيه ، الى ما لم يكن يحلم به أحد ، فقد تخطى مجده كل أمجاد أسرته ، وبنى مجداً سما به الى الأفاق وخلص اسم آل العديم على العصور .

يصف ياقوت كمال الدين بقوله :

« إن الله عز وجل عني بخلقته فأحسن خَلقه وخلقته ، وعقله وذهنه وذكاءه ، وجعل همهته في العلوم ومعالي الأمور ، فقرأ الأدب وأتقنه ، ثم درس الفقه فأحسنه ، ونظم القريض فجوده ، وأنشأ النثر فزيّنه ، وقرأ حديث الرسول وعرف علله ورجاله وتأويله وفروعه وأصوله . وهو مع ذلك قلق البنان ، جواد بما تحوى اليدان ، وهو كاسمه كمال في كل فضيلة ، لم يعتن بشيء إلا وكان فيه بارزاً ، ولا تعاطى أمراً إلا وجاء فيه مبرزاً ، مشهور ذلك عنه لا يخالف فيه صديق ، ولا يستطيع دفاعه عدو . وأما قراءته للحديث في سرعته وصحة إرادته وطيب صوته وفصاحته فهو الغاية التي أقر له بها كل من سمعها ، فانه يقرأ الخط العقيد كأنه يقرأ من حفظه . وأما خطّه في التجويد والتحرير والضبط والتقييد فسواد مقلة لأبي عبد الله بن مقلة ، وبدر ذو كمال عند علي بن هلال .

خلال الفضل في الأبحاد فوضى ولكن الكمال لها كمال ...

وإذا كان التمام من خصائص عالم الغيب ، وكان الإنسان لا بد له من عيب ، فعليه لطالب العنت والشين ، أنه يخاف عليه من إصابته العين . هذا مع العفاف والزمت ، والوقار وحسن السمات ، والجلال المشهور عند الخاص والجمهور .

قاد الجيوش لسبع عشرة حجة ولداته عن ذاك في أشغال (١)

... في هذه الخطوط السريعة التي رسمها ياقوت صاحب « معجم الأدباء » صور جليلة عن عبقرية هذا الشاب الفذ الذي لم يكد يبلغ العقد الثاني من عمره حتى وصل إلى القمة ، وفي تاريخ حياته نقرأ صفحات قوية من تاريخ حلب في العصر السادس — تاريخها السياسي ، وتاريخها الأدبي معا .

أسفار ابيه القديم. نشأته العلمية مؤلفاته

هذا الشاب الذى نشأ فى بيت علم وفضل ، قد أولع منذ صغره بالأسفار ، وما كان والده ليحول دون تحقيق رغباته على ما فى السفر ، فى تلك العصور ، من مشاق ومتاعب ، فلم يكد يتجاوز الخامسة عشرة من عمره الغض حتى قام برحلة إلى بيت المقدس ، سافر إليها سنة ٦٠٣ هـ ثم عاد فسافر مرة ثانية بعد خمس سنوات ، وكأن بغيته من السفر ليست التجوال والتفرج فى البلدان فقط ، بل طلب العلم من الأئمة العظام ، مع درس الحالة السياسية ، والحالة الفكرية فى دمشق والقدس ومعرفة ما كانت عليه من الاضطراب والغليان .. وقد اتصل بطائفة من علماء دمشق والقدس وأخذ عنهم ما وعت صدورهم من كنوز العلم ، وربما طلب إليهم أن يجيزوه فى بعض العلوم فلم يبخلوا عليه لما رأوا فيه من ذكاء والمعية .

وعنى والده بتربيته ، منذ صغره ، تربية علمية ، وتنشئته على غرار آبائه وأجداده ، وكان يفرض عليه حفظ طائفة من الكتب فحفظ «اللمع» وحفظ «التدورى» وهما كتابان فى الفقه — حفظهما فى

مدد قصيرة ، وحفظ غيرهما ، كما حفظ القرآن ، وحفظ كتاب الله ميمزة
في آل العديم ، فما منهم واحد إلا انطوى صدره على آياته المحكمة^(١) .

وعرف كمال الدين بين أترابه بالسبق ، وكان شديد الاتصال
بعلماء عصره ، سمع الحديث عن أبيه وعمه أبي غانم وابن طبرزد
والافتخار والكندی والخرساني ، وسمع جماعة كثيرة بدمشق
وحلب والقدس .

وأصبح مرموق القدر بين العلماء ، ونيط به التدريس في
أعظم مدارس حلب ، وهو في الثامنة والعشرين من عمره (وحلب
أعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ والفضلاء الرواسخ ، فالتقى الدروس
نجنان قوى ، ولسان لودعى . فأبهر العالم وأعجب الناس)^(٢) .

وأخذ كمال الدين يؤلف في هذه السن المبكرة ، فكتب للملك
الظاهر كتاب « الدرارى في ذكر الدرارى » وقدمه اليه هدية يوم
ولد ولده الملك العزيز الذى وسدت إليه سلطنة حلب بعد أبيه ، كما

(١) في معجم الأدباء ج ٦ ص ١٩ : حدثني كمال الدين أبو القاسم ؛ قال حدثني جمال الدين
أبو غانم محمد بن هبة الله بن محمد أبي جراحة عمي قال : لما ختمت القرآن قبلني والدي بين
عيني وبكى وقال : الحمد لله يا ولدي ، هذا الذى كنت أرجوه فيك ؛ حدثني جدك عن أبيه
عن سلفه : انه ما منا أحد الى زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من ختم القرآن .

(٢) معجم الادباء ج ٦ ص ٤٠ طبعة مصر

كتب كتاب « ضوء الصباح في الحث على السماح » صنفه للملك الأشرف ، وحين أنعم النظر في جمال خطه رغب في رؤيته ، ولما مثل بين يديه أحسن اليه وأكرمه ، وخلع عليه وشرفه .

وهكذا ، بدأ نجم ابن العديم يلمع ، وأخذ صيته يدوى ، وأحبه العلماء والملوك . وكأنا كان التأليف نزعة من نزعات هذا الشاب النبوغ ، فلا يكاد ينتهى من وضع كتاب حتى يبدأ بوضع كتاب آخر .

وقد طلب اليه ياقوت الرومى أن يؤرخ آل العديم الذين يتصل نسبهم ببني جرادة ، فكتب في أسبوع واحد كتاب « الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة » وهو الكتاب الذى اعتمد عليه في تدوين أخبار بني العديم ، وإذ عرف بمجودة الخط ، وكان للخط الجميل أثره ، وضع كتاباً في الخط وعلومه ، ووصف آدابه وأقلامه وطروسه ، وما جاء فيه من الحديث والحكم . كما كتب تاريخ حلب ، ضمنه أخبار ملوكها وابتداء عمارتها ، ومن كان بها من العلماء ، ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتاب ، كما كتب كتاب « تدبير حرارة الألباد ، في الصبر على فقد الأولاد » ولا شك أنه صور فيه لواعج الحزن في صدر أبيه ، ودموعه الحرى على فقد أخيه .

وقد ألف ابن العديم في شتى صنوف العلم ، وكانت نزعته إلى التاريخ أغلب ، ولعل أعظم كتبه وأوفاهها كتابه عن تاريخ حلب ، لقد كان هذا الكتاب آخر ما ألفه هذا العالم المؤرخ الأديب ، ولم تكن السياسة وأعمال القضاء لتشغله عن التأليف ، والتأليف ظاهرة غريبة يمتاز بها بعض العباقرة ، فلا تتر الفكرة في خاطرهم حتى تتسع وتتجسد وتستحيل كتاباً له أثره ، وله قيمته ، وقد يخلد مع الأيام . وابن العديم كان من هذا النفر ، فقد وهبه الله الذكاء والدراسة وعاش في بيئة علمية مكنته أن ينهج نهج آبائه وينسج على طرازهم ، وشاءت الأقدار أن تتحقق أحلام أبيه فيرى ولده في منصب رفيع يحسده عليه الكثيرون ، ولا شيء يقر عين الأب ويجعله في فيض من السعادة أجمل من أن يرى نجم ولده آخذاً في الالتماع وهو في قيد الحياة . وهكذا كان . ويظهر أن المهام الرسمية لم تشغل ابن العديم عن التدوين والتأليف . نعم ، لم يشغله منصب قاضي القضاء ، ومنصب الوزارة حيناً ، والسفارة حيناً آخر ، عن التدوين ، بل كان ذلك مما زاد في نشاطه .

يقول العلامة محمد كرد علي : « وكان جميع أهل هذا البيت - بيت ابن العديم - منذ كان الإسلام يحفظون الكتاب العزيز ، وقد

تولى خمسة منهم على التوالي منصب قاضى القضاة بحلب ، وكان كمال الدين واسطة عقدهم ، واشتغل بالسياسة والعلم فتولى الوزارة مرتين الأولى للملك العزيز ، والثانية للناصر آخر بنى أيوب ، وذهب بالسفارة عنهما إلى بغداد والقاهرة . ولا يتولى الوزارات فى الغالب إلا الأكفيا ، ولا ينوب عن صاحبه إلا أرباب الكفايات المعترف بها وقد ألف كمال الدين وصنف وكتب بخطه الجيد ألوفاً من الصفحات ، ومن جملة ما كتب بخطه البديع ثلاث خزائن من الكتب واحدة لنفسه ، وخزانتان لابنيه ، لكل منهما خزنة ، فإذا افترضنا - الافتراض الكرد على - أن كل خزنة تضم مئة مجلد ، وهو أقل تعديل ، فيكون مجموع ما كتب ثلثمائة مجلد ، عدا تأليفه الممتعة التى نمت على تحقيقه وبحثه ، ولم نعرف منها سوى ثلاثة :

- ١ - الأول من كتبه : دفع الظلم والتجريح عن أبى العلاء المعرى
- ٢ - تذكرة ابن العديم : وهى مفقودة وجد منها مجلد فى بضعة أجزاء أولها : الجزء الخامس وآخرها الجزء السادس عشر ، وفيها فوائد أدبية وتاريخية كثيرة ، وهى جديرة بالطبع .
- ٣ - أمّا الكتاب الثالث الباقى من تأليف مؤرخنا فتاريخ « زبدة الحلب فى تاريخ حلب » وهو من أحسن كتبه ، ولم يبيضه ،

وفيه كلام عن جغرافية بلاد حلب وبحيراتهما وجبالها وتربتها وهوائها
ومائها وخراجها وعادياتها ، وذكر فيه مدناً تمتد اليوم من كليكميا
والجزيرة مع أنها من أعمال حلب ، مثل أذنة والكنيسة السوداء
وطرسوس وسيس والحدث الحمراء وملاطية وسميساط ورعبان
ودلوك إلى غير ذلك من الحصون والبلاد . وتكلم على جيحان نهر
المصيصة وسيحان نهر أذنه والعاصي نهر أنطاكية وحماة والبردان
نهر طرسوس ، وبذلك عرفنا أن عمل حلب في عهده كان واسعاً جداً
أكبر من مملكة من الممالك الصغرى لعهدنا ، وفيه فصل من أجل
فصول الكتاب فيمن نزل من قبائل العرب بأعمال حلب ومن كان
قبلهم ^(١)»

يقول ابن الشحنة في تأليف ابن العديم في تاريخ حلب :
« إن كمال الدين بن العديم أتقن في تاريخه وأجاد وأطال ولم يبيض
منه إلا اليسير ، وأطال فيه من ذكر الروايات والطرف ، فجاء بمعنى
قليل في لفظ كثير ، ولم يسبقه أحد بتاريخ لها على الخصوص ، وسمّاه
« بغية الطلب في تاريخ حلب » رتبته على حروف المعجم »
ويقول : « إن مسودته كانت تبلغ نحو أربعين جزءاً كباراً

والمبيضة تجيء كذلك ، لكن اخترمته المنية قبل إكمال الأمانة ؛
وتفرقت أجزاؤه قبل الفتنة التيمورية » .

ويقول صاحب كشف الظنون^(١) في إلماعه إلى من كتب في

تاريخ حلب :

« إن أول من صنف فيه على مافى « الدر الحلب » كمال الدين
أبو حفص عمر بن أبي جرادة عبد العزيز المعروف بابن العديم الحلبي
المتوفى سنة ستين وستمائة ، جمع فيه أعيانها على ترتيب الأسماء »
قال اليوناني في الذيل : يكون بياضه في أربعين مجلداً ، ومات
وبعضه مسودة . وسماه « بغية الطلب » ، ثم انتزع منه كتاباً سماه
« زبدة الحلب » ثم ذيله القاضي علاء الدين أبو الحسن على بن سعد
الجبريني الشهير بابن خطيب الناصرية المتوفى سنة ثلاث وأربعين
وثمانمائة ، وسماه « الدر المنتخب » وهو أيضاً على الحروف .

ويتضح الحاجي خليفة الشهير بكاتب حلبى صاحب كشف
الظنون فى ذكر جميع المؤرخين الذين كتبوا عن حلب ، فيبين
أنهم اعتمدوا جميعهم ما كتبه ابن العديم ، فيقول :

(١) ج ١ ص ٢٩١ طبعة استانبول

« ولما طالعه — أى كتاب ابن العديم — الحافظ أبو الفضل أحمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني حين قدم حلب سنة ست وثلاثين وثمانمائة ألقى فيه أشياء كثيرة ، كما ذكره في ديباجة « أنباء الغمر » وأثنى على صاحبه ، ثم ذيله موفق الدين أبو ذر أحمد بن إبراهيم الشهير بسبط بن النجمي الحلبي المتوفى سنة أربع وثمانين وثمانمائة ، وسماه « كنوز الذهب » وهو ذيل « الدر المنتخب » ضمنه ذكر الأعيان والحوادث ، والذيل على « كنوز الذهب المسمى بالدر الحبيب » للمحقق رضى الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن الحنبلي الحلبي المتوفى سنة إحدى وسبعين وتسعمائة ، وهو أيضاً على الحروف . وله تاريخ آخر انتزعه من تاريخ ابن العديم وزاد عليه وسماه « الزيد والضرب » ، في تاريخ حلب « ألفه سنة إحدى وخمسين وتسعمائة وللشيخ طاهر بن الحسن المعروف بابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ثمان وثمانمائة تاريخ منتزع منه أيضاً سماه « حضرة النديم من تاريخ ابن العديم » .

هكذا وجدته ، ثم رأيت في « درة الأسلاك » لوالده حسن ابن حبيب أنه يقول في ترجمة الكمال بن العديم : جمعت من تاريخه ومن خطه كتاباً لطيفاً سميته « حضرة النديم » « اهـ »

ومن هذا العرض نعلم قيمة هذا الكتاب الذى كان مرجعاً
لجميع المؤرخين الذين كتبوا عن حلب ، منذ العصر السادس إلى
العصر العاشر الهجرى ، إلى يومنا هذا . .

ولكن أين هذا الكتاب ؟ وهل تحتفظ مدينة حلب بهذا
الأثر النفيس من آثار ابن العديم ؟ من المؤسف والحزينة تحزن نفوسنا
أن نقول : لا . والله يعلم أى يد آتمة عبثت بأجزاء هذا الكتاب ؟ .
وهو اليوم كله أو بعض أجزائه فى مكاتب باريس واستنبول
والقاهرة ولندن وحلب .

ومن المؤلم أيضاً أن نقول إنه لم يبق من الأربعين جزءاً التى
كتبها ابن العديم بخط يده غير أجزاء مبعثرة ، مع أن كتابه كان
مرجعاً لعشرات المؤرخين على تعاقب الأجيال .

آراء المؤرخين في ابنه العديم

تلك لمحات سريعة عن ابن العديم المؤلف ، ولنستمع الآن إلى آراء معاصريه ، وأكثرهم من ثقات المؤرخين ، في قيمته العلمية ومركزه الاجتماعي أديباً وعالماً وقاضياً ووزيراً وسفيراً من سفراء المملكة ، وهكذا تنكشف لنا صفحات جديدة من حياة هذا الرجل الموهوب الذي دافع عن كرامة العقل في شخصية أبي العلاء ، ولعب دوراً خطيراً في تاريخ حلب الأدبي والسياسي ، وكان من هذا نفر الذي عمل على توثيق الروابط بين مصر والبلاد العربية في ردّ عدوان الأجنبي .

قال الذهبي صاحب تاريخ الاسلام :

« كان كمال الدين عديم النظر فضلاً ونبلاً وذكاء ورأياً ودهاء ومنظراً ورواء وجلالة ومهابة ، وكان محدثاً حافظاً ومؤرخاً صادقاً . وفتياً مفتياً ومنشئاً بليغاً . . »

وقال شهاب الدين محمود :

« كان ابن العديم إماماً عالماً فاضلاً متفناً في العلوم ، جامعاً لها . أحد الرؤساء المشهورين والعلماء المذكورين . وترسل إلى الخليفة

والمملوك مراراً كثيرة . وكانت له الوجاهة العظيمة عند الخلفاء
والمملوك . وهو مع ذلك كثير التواضع لين الجانب حسن الملتقى
والبشر لسائر الناس . مع ما هو مفطور عليه من الديانة الوافرة
والتحرى فى أقواله وأفعاله . »

وفى « فوات الوفيات » :

« كان محدثاً فاضلاً حافظاً مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتياً منشئاً
بليغاً كاتباً محموداً ، درس وأفتى وصنف وترسل عن المملوك » .

ونستطيع أن نورد عشرات النصوص فى الإلماع إلى علمه
وفضله ومركزه . وكلها على النسق الذى تقدم . ونكتفى بهذا المقدار
لننتقل إلى صفحة جديدة من حياته السياسية .
ونرى قبل الإلماع إلى هذه الصفحة أن نجلو العصر السياسى
الذى عاش فى أطوائه ابن العديم .

عصر ابن القديم والغزو المغولي

لقد كان العالم الاسلامي في العصر السادس الهجري . يعجّ بالقلق والاضطرابات . وكانت دنيا العرب بعد أن تصدعت الخلافة الاسلامية تتقاذفها الرياح والأعاصير . بل كانت في حالة من التصدع تدعو إلى الذعر واليأس . . فما كادت تهدأ نيران الحروب الصليبية ويحمد ضرامها حتى أخذت تواجه خطراً جديداً . كانت حروب المغول لاقتل خطراً عن الحروب الصليبية ، أى أن البلاد العربية في تلك الفترة . واجهت حربين عنيفتين : حرباً دينية خطيرة وحرباً عنصرية مميّة . نعم لقد واجهت شواطئ البحر المتوسط هذه الموجات الصليبية التي صمد لها صلاح الدين ، فما كادت تردّ ويقضى عليها حتى واجهت خطر جنكيزخان وهولاكو . . وأى خطر ؟ . لقد كان خطر المغول كالطاعون الخيف الذي انتشر وباؤه في جميع الأقطار الإسلامية .

يصف المستشرق السير توماس أرنولد في كتابه « الدعاية الإسلامية » هذه الكارثة بقوله :

« لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات

خطباً أشد هولاً من غزوات المغول ، فقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قنن الجبال واكتسحت في طريقها العواصم الإسلامية ، وأتت على ما كانت لها من مدنية وثقافة ، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى صحراوات وأطلال بالية ، وكانت تقوم قبل ذلك القصور الملكية الفخمة المحاطة بالحدائق والمروج الغناء ^(١) »

وهكذا ، اتحت معالم المدينة التي زهت عدة عصور في بلاد ماوراء النهر وخراسان على أيدي هؤلاء المتوحشين ، وانحدرت البلاد إلى دركات الفاقة والجهل ، وتقوضت عظمتهما ، وأقفرت الطرق من القوافل التي كنت تخرقها لنقل حاصلات الصين والهند إلى غربي آسيا وأوربا ، واستحالت الأرض الزراعية المعروفة بخصوبتها إلى باقع يباب ، واضمحلت الصناعات والفنون التي طبقت شهرتها الآفاق ، وغدت المدن والضياع أطلالا دارسة ، وقتل الفلاحون ، وأدخل من بقي منهم قسرا في الجيش المغولي ، وحمل أصحاب المهن إلى أقاصى الشرق ليشغلوا في تجميل مسقط رأس الغازي ، وعلى الجملة قضت إغارة المغول قضاء مبرما على الحياة العقلية في آسيا الوسطى ^(٢) .

(١) انتشار الاسلام بين المغول وانتار — حسن إبراهيم حسن ص ٢٤

(٢) مختصر تاريخ العرب والمتمدن الاسلامي ص ٣٣٩

لهولاكو في بغداد

لقد مهد جنكيزخان لهولاكو ، بعد هذه الزحفات المغيرة -
مهد له شهوة الفتح في بلاد الشرق العربي ، فبعد أن فتح بلاد
ما وراء النهر ، بعد خوجاند وبخارى وسمرقند وأوركانج وهرارة
والرى ونياور وهمدان ، واصل زحفه على بغداد عاصمة الخلافة
العباسية فقد دخلها في عهد المستنصر الذي توفي في أخرج مواقف
الدولة العباسية . خلفه ابنه المستعصم بالله ، وكان ضعيف الرأي ، شديد
البطش ، مغرمًا باللهو ، وقد عرف عهده بنشوب الفتن والاضطرابات
في الداخل والخارج ، حتى تجمعت عليه الإحزن والمصائب .

وكان المسيطر على شؤون الملك وزيره ابن العلقمي ، وكان
رافضيًا خبيثًا ، حريصا على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى
العلويين ، وقد زين للخليفة أن يسرح الجند ويصانع التتار ، وكان
على صلة بهولاكو وأعوانه ، فكاتبهم سرًا وأطعمهم في البلاد
على أن يكون نائبيهم ، فوعده بذلك ، وتمت الكارثة الكبرى .
فدخل هولاكو وجنوده قاعدة الملك العباسي بجيوش جرارة
لا قبل للعالم الاسلامي بها ، وقد حاول جنود الخليفة مقاومة الغزاة

قبل وصولهم إلى بغداد : بيد أن تفرق كلمتهم أدى إلى إحباط جهودهم وإلحاق الهزيمة بهم في آخر الأمر .

ولما وصل المغول إلى بغداد حاصروهم أربعين يوماً حصاراً لا هوادة فيه ، ونصبوا المنجنيقات على جميع القلاع والحصون المشرفة عليها ، ثم طفقوا يطورونها بوابل من الحجارة والغاز المشتعل حتى أحدثوا في أسوارها فجوة كبيرة وأحرقوا منازلها ، وعندئذ أذعن الخليفة المتردد لطلب الصلح وفتح باب المفاوضات مع هولاءكو الذي سرعان ما استدعى كبار ضباط المستعصم وقتلهم هم وخدامهم وأتباعهم ، فسأه لذلك موقف الخليفة ، وأبدى في الحال استعداداه إلى الاذعان بالتسليم على شرط أن يبقى على حياته وحياة سكان المدينة ، كما استأذنه في الخروج إلى معسكره وبصحبة أخوه وولده وحاشيته المؤلفة من ثلاثة آلاف جهم من القضاة والأعيان والأشراف ، ولكن هولاءكو مع ذلك لم يسمح لأحد بالثول بين يديه إلا للخليفة نفسه وأخيه وولديه وثلاثة من رجال البلاط .

وقد استقبلهم ذلك الوحش استقبالا ودياً برغم ما كان يضرهم من الخيانة والغدر ، ولما نجح في تهدئة روع الخليفة وأدخله الطائنة إلى قلبه ، أمره أن يوعز إلى الأهالي المسلحين بالقاء

السلاح والوقوف خارج أبواب المدينة بحجة إحصائهم ، وما إن أذعنوا إلى أوامر الخليفة وتدققوا خارج أسوار المدينة حتى هجم عليهم التتر وفتكوا بهم فتكا ذريعاً .

وفي صباح اليوم التالي أصدر هولاء أمره المشؤم بنهب المدينة وذبح أهلها . وإننا لنرى - كما يقول المؤرخ الهندي أمير على - أننا نحتاج في وصف تخريب تلك المدينة إلى بيان كيان (غيون) المؤرخ المشهور لكي نستطيع أن نقرب الحقيقة إلى أذهان القراء ، فقد خرج الشيوخ والنساء والأطفال من منازلهم حاملين المصاحف على أكفهم وهم يتوسلون ويتضرعون إلى الجنود بلهجة تفتت الأكباد أن يبقوا على حياتهم ، ولكن الغزاة لم يعبأوا باستغاثتهم كما وطئوا أجسادهم بحوافر خيولهم ، وهجموا على نساء الأشراف والنبيلات اللواتي لم يعتدن السير في ازدحام طوال سنى حياتهن وجروهن إلى الشوارع ، كما أنزلوا بهن أروع ضروب الإيهايات وأذلهن . أما تلك الكنوز الأدبية والفنية ومخلفات المدينة الفارسية التي جمعتها أيد حريصة نشيطة بأشراف الخلفاء ، فقد دمرت تدميراً في خلال بضع ساعات ، وطفقت شوارع المدينة تنساب فيها الدماء بطوال ثلاثة أيام ، حتى اصطبغ ماء دجله لعدة أيام بصبغة الدم القانية ،

وظلت ريح التخريب والنهب وانتهاك حرمة الإنسانية تعصف بالمدينة ستة أسابيع كاملة حتى انهارت القصور المنيفة الذرى ، وتقوضت الجوامع المقدسة والضرائح الفخمة إما بالنار وإما بالمعاول من أجل قبابها الذهبية .

وأعلنت السيوف في رقاب المرضى في المستشفيات ، وطلاب العلم والأساتذة في المدارس والكليات ، ونبشت قبور الأولياء وأضرحة الأئمة الصالحين ، والتهمت النيران نتائح قرائح العلماء والأدباء ، وألقيت الكتب لتلثمها ألسن النار أو لتبتلعها مياه دجلة ، وهكذا فقدت الإنسانية كنوز خمسة قرون ، وفيت زهرة الأمة فناء تاماً .

وبعد أن استمرت ريح هذه المذابح الدامية تعصف بالمدينة طوال أربعة أيام ، قبض هولاء كو على المستعصم وأمر بضربه هو وأولاده وأفراد أسرته ضرباً مبرحاً حتى فارقوا الحياة^(١) . ولم ينج من هذا المصير المحزن سوى عدد ضئيل من أفراد الأسرة الخاملة الذكر . وهكذا ، أمست بغداد موطن العلم ومثابة العلماء ، وعاصمة

(١) في الهجوم الزاهرة : أنه لما تم أمر هولاء كو طلب الخليفة وقتله خفياً ، وقيل غم في بساط ، وقيل جعله هو وولده في عدلين وأمر برفسهما حتى ماتا . ج ٧ ص ١٠٠

الثقافة الإسلامية ، وحاضرة العالم العربى خراباً ياباً ، بعد أن كان عدد سكانها قبل هذه الطامة الكبرى زهاء مليونين . ويقول ابن خلدون إن ١٦٠٠٠٠٠ هلكوا فى تلك المذبحة فى خلال ستة أسابيع . وبتدمير بغداد أُرْخِيَ الظلام الدامس سدوله على غربى آسيا^(١) كان العالم الإسلامى ، فى العصر السادس ، يعيش فى هذه المحن السود ، ولم تكن عاصمة الخلافة العباسية - على ماهى عليه من التفكك والاقسام الداخلى - لم تكن تظن أن غارة التتر التى نبتت فى غربى آسيا ستتخطى فارس إلى وادى الرافدين ، وكان سقوط حاضرة الخلافة العباسية - وقد سقطت سنة ٦٥٦ هـ - إنذاراً خطيراً بنكبات تنتظر بلاد الشام . وهكذا كان . فان هولاء كوالى زحفه دون توقف .. وماذا بعد بغداد ؟ نعم ماذا بعد فرغانة وبخارى وسمرقند وبلخ ونيسابور وبغداد غير مدينة ابن العديم ؟

لقد كان كمال الدين فى نصارة شيخوخته . وإنه - وهو مؤرخ وسياسى - يعرف أى مصير محزن يرتقب حلب .. لقد أبكته كارثة بغداد ، هذه الحاضرة التى قامت على ضفافها حضارة العالم الإسلامى أجمع ..

(١) مختصر تاريخ العرب والمتمدن الإسلامى ص ٣٤١-٣٤٣

وكيف لا تغرورق عيناه بالدموع وقد أصبحت مدينة الرشيد
طعمة لنيران المغول ؟

إنه وطني مخلص وشاعر حساس ، ومسلم يتقد قلبه بالإيمان .
ولم تكن نظراته الوطنية نظرة إقليمية ، لذلك كان حزنه على سقوط
بغداد أكثر من الجميع ، وبدأ يفكر في الخطر الذي يهدد وطنه
حلب ويهدد بلاد الشام .

ابن العديم في سفارة السياسة

و تساءل ابن العديم ما عساه يستطيع أن يعمل ؟ هل في مملكة الناصر يوسف هذه القوى المنيعة التي تستطيع أن تصد هجوم التتر ؟ كان ابن العديم يفكر في هذا ، وكأننا هذه الكارثة ستنزل به وحده ، وسرعان ما عقد مجلساً فوق العادة مع الملك . وكان كمال الدين من المقرين إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام و حلب ، بل كان صفيه ، بل كان أكثر من هذا . يقول عنه ابن فضل الله : « كان بين أهل ذلك الزمن لا يجلس أحد فوقه في مجلس السلطان ، وكان الملك الناصر بن الملك العزيز يخاطبه بالوالد ، ويحكم للألف منه بواحد »

وطبيعي أن يرجع اليه في رد هذه الكارثة ، وقر الرأي أن يسافر ابن العديم إلى مصر ، مندوباً عن الملك الناصر ، يطلب النجدة من ملكها لرد عادية المغول . أى لم يكذب يرجع من بغداد سنة ٦٥٤ هـ وقد سافر في مهمة توطيد العلاقة بين الخليفة والملك الناصر حتى يسافر إلى مصر سنة ٦٥٧ في مهمة سياسية خطيرة . وعلى ما بين القطرين من مسافات شاسعة ، وعلى الرغم من صعوبة

السفر في ذلك الزمن ، وبرغم شيخوخته ، فإنه لم يتردد في السفر . إنه من بيوتات حلب الكريمة ، وهو زعيم قد سيطر على الموقف بعلمه وأدبه ودرايته وحكمته ، فما راحته وما شيخوخته في سبيل إنقاذ وطنه ؟ إذن ، فليسافر إلى مصر .

وسافر معتمداً على ما حباه الله من ذكاء وعلم ومقدرة وسياسة ، وماله من كلمة مسموعة عند ذوى الرأي من رجالات البلاد العربية . وكانت شهرته قد سبقته إلى مصر ، بعد سفرته إلى بغداد وبعد توليه منصب قاضى القضاة وبعد توليه الوزارة مرتين : الأولى للملك العزيز والثانية للناصر آخر بنى أيوب . نعم ، لقد استفاضت شهرة ابن العديم . ولم تقف هذه الشهرة في حدود حلب بل تخطتها إلى الآفاق العربية . ولم يكن السفر في ذلك الحين بالسيارة أو بالطيارة ، ولا بالباخرة أو القطار ، بل كان على الدواب . وهل يستطيع هذا الشيخ الجليل أن يقطع هذه المسافة الطويلة ، أى أن يقطع ثلاثين يوماً على دابة ، لا : لقد هيئت له محفة تحمله بين بغلين .

وهكذا ، فقد بارح حلب ونفسه قلقة على المصير المحزن الذى يرتقب عاصمة الحمدانيين بعد كارثة عاصمة العباسيين .

ووصل إلى مصر . .

ولكن ماذا كانت عليه مصر ؟

كانت من الفوضى والاضطراب لا بدعو للاطمئنان ، لقد ظلت فترة بدون سلطان ، ثم حكمها مملوك تركى من ممالك الصالح نجم الدين أيوب - نعم كانت مصر محكومة من الأمير التركانى - الملك المعز أيك الذى تزوج شجر الدر ، ولكن ملكه لم يطل ، فقد أراد أن يتزوج بنت الملك الرحيم صاحب الموصل ، وأنت تقدر ماتفعله الغيرة فى قلوب النساء وفى قلب ملكة كشجر الدر ، فما كان منها إلا أن قتلتها ، ولقتله قصة ليس هنا مكان لسردها . وقد حكم مصر بعده ولده الملك المنصور على وهو صبي رعر ، وكان كأبيه غير محبوبين من المصريين الذين كانوا يتطلعون إلى الملك الناصر . نعم ، وصل ابن العديم إلى مصر بعد سفر مضن طويل ، وقد تحمل هذه المتاعب المرهقة برغم شيخوخته ، فاحتفت به مصر حفاوة بالغة ، احتفى به الملك والأمراء والأعيان والعلماء ، ونزل فى ضيافة السلطان فى قصر الكبش^(١) وتوافدت رجالات مصر للسلام

(١) الكبش يطلق على الجزء الشمالى الغربى من جبل يشكر حيث المنطقة الواقعة غربى جامع ابن طولون - النجوم الزاهرة - ج ٧ ص ٧٢ ويقول المقرئى فى خطه - ج ٢ ص ١٣٣ أننا كلامه عن مناظر الكبش إن هذه المناظر كانت على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى وإن الملك الصالح نجم الدين أيوب لما أنشأ هذه المناظر سماها الكبش لوقوعها فوق الجبل ولا تزال هذه المنطقة تعرف اليوم باسم قلعة الكبش بشارع مراسينا بقسم السيدة زينب

عليه والترحيب بتقديم عالم فذ من علماء العالم الاسلامي ، ومفكر سياسي هاله أن تصبح بلاد الاسلام نهبا للمغوليين الهدامين .

وانتهت مراسم التسليم ، وبدأ المؤرخ السفير بمفاوضاته ، وكان على رأس مصر الأمير قطز ، وهو ذو مطامع واسعة ، وقد رأى أن يستغل فرصة مقدم ابن العديم ليشير قضية السلطنة مجدداً . وهكذا فقد عقد اجتماع في دار السلطنة بقلعة الجبل ، ودعى إلى هذا الاجتماع القضاة والفقهاء والأعيان للنظر في مهمة ابن العديم ، وفي نوع المعونة التي تستطيع أن تقدمها مصر إلى الشام في ردّ عادية التتر . على أن الاجتماع لم يقف عند هذه الناحية فقط ، بل تعداه إلى واجب الشعب في هذه الظروف ، والالتزامات التي تقتضيها ظروف الحرب - أو ظروف ردّ عادية العدو - وما يجب على الشعب وما يجب على الحكومة . وأدلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام برأيه ، وهو رأى لا يقل في صرامته عما تفرضه الحكومات من هذه الأنظمة الشديدة التي شهدناها في هذه الحرب والحرب الكبرى الأولى .

على أن السلطان لم ينبس ببنت شفة في هذا المجلس ، ويعلل المؤرخون ذلك بصغر سنه وعدم معرفته الأمور ، ولهج الناس بضرورة خلع المنصور وتوسيد السلطنة إلى قطز ، ويظهر أن ابن العديم

لم يرقه هذا التصرف ، ولكن الأمير قطز أوضح لابن العديم أن مصلحة الدولة تقضى بذلك ، لأن المنصور صبي لا يحسن تدبير الملك ، ولا بد في مثل هذه الظروف العصبية من أن يقوم بأمر الملك رجل ذو مكانة وشهامة ، يطيعه الناس وينتصب للجهاد رد عادية الأعداء وغاراتهم الخيفة (١)

ويبدو لي أن ابن العديم كان يود ألا تقع هذه الأمور أثناء وجوده في مصر ، وهو ضيف على السلطان ، ولكن البلاد العربية في خطر ، وهولاكو قد اجتاز بغداد في طريقه إلى حلب . وقطر من أقوى أمراء مصر ، والمصريون يرمون بحكم هذا الصبي الغر . إذن ، فما كان منه ، بعد أن صرح قطز بأنه لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية الدفاع ما لم يوسد الأمر إليه - ما كان من ابن العديم إلا أن نادى مع الجميع : ليس لدفع هذه الكارثة غيرك .

وهكذا ، فقد خلع الملك المنصور في الحال وبويع الأمير قطز ، ولقب بالملك المظفر سيف الدين ، وسرعان ما جهز حملة كبرى إلى البلاد الشامية للانضمام إلى جيش الملك الناصر ومقاتلة هولاكو لدفع هذا الخطر الذي يهدد البلاد العربية من فراتها إلى بردها إلى نيلها .

كان الملك الناصر قد بارح حلب إلى دمشق ليعلن التعبئة العامة وقد جمع جيشاً من الشام ناهز مائة ألف جندي ما بين عرب وعجم ، وكان سفيره ابن العديم قد استطاع أن يهييء الرأي العام المصري ورجال الدولة للاشتراك في دفع عدوان التتر ، برغم ما كان بين الملك الناصر والملك المظفر - سيف الدين قطز - من صلات غير ودية . ولكن مطامع هولاكولم تكن لتقف عند بلاد الرافدين ، بل كان يطمع في مصر بعد أن يستولى على بلاد الشام .

واقترب الخطر ودخل هولاكولمدينة حلب سنة ٦٥٨ هـ بعد حصار دام عشرة أيام دافعت فيها دفاع الأبطال ، قتل فيها خلق كثير ، واستبيحت الدماء ، وامتلات الطرقات بالقتلى ، وتهدمت البيوت والجوامع والمساجد والبساتين حتى أصبحت المدينة موحشة . يقول المؤرخون إن الحلبيين قد قتلوا من جنود هولاكولعدداً كبيراً . وهذا الذي حمّله ، بعد أن دخلها ، أن يعيث فيها وبأخذ منها مائة ألف أسير ، عدا ما صادره من أموالها ونفائس كنوزها . ومن حلب إلى دمشق ... وما زال حتى اقترب من الأراضي الفلسطينية ، فأرسل إلى الملك المظفر - قطز - إنذاراً شديد اللهجة يطلب إليه التسليم بدون قيد ولا شرط . ولكن سقوط بغداد

وحلب ودمشق وما أنزله هذا الطاغية من البلاء والكوارث بالنفوس
والحرقات المقدسة قد أثار حفيظة المصريين الذين هبوا لإعلان
الجهاد على هذا الجلاد الأحمر .. وهكذا كان ، وبدون أن نفصل
وقائع هذه المعركة الخطيرة ، نقرل إن النصر قد كتب على يد قطز
- الملك المظفر سيف الدين - والأمير بيبيس البندقدارى (١) - فقد
هُزم هولاكو وجنده في «عين جالوت» ، وكانت تلك المعركة من
المعارك الحاسمة في التاريخ ...

وقبل أن يُهزم هولاكو كان الملك الناصر قد استسلم إليه
فأنس به وأكرمه وأجرى عليه راتباً ووعدته بمملكتي الشام ومصر
وكتب له فرماناً بذلك ، ولكن ما كادت معركة «عين جالوت»
تقضى على آمال هولاكو حتى سحب الملك الناصر إلى سلماس
وهي مدينة في أذربيجان - وقتله مع جملة من أصفياهه الأمراء .
أما ابن العديم فظل في مصر ، ولم يكده يسمع بجلاء النتر عن
بلاد الشام حتى اعتزم العودة إلى حلب ليرى ما نزل بها من بلاء ...
نعم عاد إلى مسقط رأسه ، فماذا رأى ؟

كل شيء يدعو فيها إلى الوحشة والرعب ، مدينة صامتة كأنها

مقبرة ، لم يتبين فيها تلك المحاسن التي أوحى إليه أن يكتب عنها أربعين مجلداً ، نعم ، لم تعد في نظره تلك الروضة الغناء .. أين قصر الملك الناصر ؟ أين بيوت آل العديم ؟ ما فعل الله بجوامعها وقصورها ؟ لقد أصبح أكثرها خراباً ياباً .. ولم يُطق المقام في بلده .. فما كان منه إلا أن قفل راجعاً الى مصر بعد أن ودع مدينة الحمدانيين بقصيدة حزينة . ومن المؤسف ألا تحفظ لنا النصوص القديمة غير عدة أبيات منقطعة من هذه القصيدة الطويلة التي يصف فيها تهديم التتر ل حلب بقوله :

هو الدهر ماتبنيه كفالك يهدم	وإن رمت إنصافاً لديه ، فتظلم
أباد ملوك الفرس جمعاً وقيصرا	وأصمت لدى فرسانها منه أسهم
وأفنى بنى أيوب مع كثر جمعهم	وما منهم إلا ملوك معظم
وملك بنى العباس زال ولم يدع	لهم أثراً من بعدهم وهم هم
وأعتابهم أضحت تداس وعهدا	تباس بأفواه الملوك وتلم
وعن حلب ماشئت قل من عجائب	أجل بها يا صاح إن كنت تعلم
ومنها :	

رفيالك من يوم شديد لغامه	وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت	مصاحفها فوق الثرى وهى ضخم

إلى أن قال :

واسكننا الله في ذا مشيئة فيفعل فينا ما يشاء ويحكم
ورجع إلى مصر ، ينوى الإقامة فيها بعد أن توثقت معرفته
بكثيرين من رجال الدولة والعلماء . نعم ، لقد آلمه أن يرى الشهباء
قد آلت خرابا على أيدي التتر ، فنزح عن بلده إلى مصر التي عرفت مكانته
وقدره فاستوطنها ، واسكن لم يطل مقامه فيها حتى وافاه القدر سنة ٦٦٠ هـ
ودفن بسفح المقطم من القرافة بالقرب من المسجد المعروف
بالعرض ، بتربة موسى بن يغمور .

الدفاع عن أبي العلاء

رسالة ابن العديم

نقف الآن عند هذا الحد من إبراز شخصية ابن العديم —
شخصيته الأدبية وشخصيته السياسية ، وما رافق حياته من
أحداث فذة في تاريخ العالم الاسلامي ، لنعلم أى فذ انتصب للدفاع عن
أبي العلاء .

إنه لم يكن أديباً وسطاً ، بل كان إماماً من الأئمة العظام
وقد آلمه أن يشيع الجهل في أنصاف العلماء وأن يحكموا عليه حكمهم
القاسى ، فتوفر على دراسة كل ما كتبه أبو العلاء أو أكثره ،
فلم يجد فيه هذه الارهاصات التى رموه بها ؛ بل رأى أديباً فذاً
تفاخر به العربية ويعتز به الاسلام ؛ شاعراً فيلسوفاً قل أن تجود به
الأجيال . ورأى داء الحسد فاشياً ، والناس تذهب مذاهب ملتوية
في تفسيره الأحلام ، فكتب رسالته ، وهى آية في القوة ، تضمنت
مقدمتها كلمات قدت من نار ، فقد عرض الى قيمة أبي العلاء
الأدبية ، والى رأى المتخرصين فيه ، والى ما يصيب البشر من لؤم
الطباع ، وما زال يصب عليهم جام غضبه وقمته إلى أن أظهره في
طليعة المفكرين المصلحين . ولا نسترسل في الاملاء الى هذه المقدمة ،

وسيتلوها القارئ بنصها بعد قليل ، وأنا واثق أنه سيعيد تلاوتها أكثر من مرة ، لأنها قطعة من الأدب الخالص — الأدب الحار الذى يدافع عن فكرة ومبدأ ، ولا يضيرها أنها مسجعة . فهى من هذا اللون ذات الجرس الموسيقى .

لقد صور فى هذه المقدمة أبا العلاء أجمل تصوير ، عرض الى فكرته ، والى خصومه ، والى مذهب التحاسد فى عصره ، فكان محامياً لبقاً من أبلغ المحامين الذين يتصدون للدفاع عن قضايا الفكر . وينتهى من هذه المقدمة الى الالماع الى نسبه ومولده ، ثم الى نشأته وعماه وخلقته . ثم يتحدث عن اشتغاله بالعلم ، وشيوخه الذين أخذ عنهم ، كما يتحدث عن تلاميذه ومن روى عنه من العلماء والأدباء والمحدثين . ثم يشير بأسهاب إلى تصانيفه ومجموعاته وتأليفه وأشعاره ورسائله ، وبعد ذلك يكتب لنا ابن العديم قصة سفر أبا العلاء الى بغداد وعودته منها ثم انقطاعه فى منزله عن الناس .. وبعد أن يجلو هذه الصفحات من حياته يتحدث عن ذكائه وفطنته وسرعة حفظه وألمعيته وتوقد خاطره ويصيرته ومقامه عند الملوك والخلفاء والأمراء والوزراء ، ثم يتناول الكلام عن كرمه وجوده على قلة ماله ونزارة موجوده ، وعن قناعة نفسه وشرفها

وعفتها، الى غير ذلك مما يتصل بأبى العلاء .

وكأنه أحب أن يبرز شخصيته الفذة من خلال دفاعه ، فوق
فرسالته هذه أعظم توفيق ، ودل على واسع علمه وعلى قوة اتزانه
ودقة أحكامه .

ولا شك أن هذه الرسالة ، لزمناها ، قد أخرست الكثيرين من
المتخرصين الذين يرمون الكلام على عواهنه دون تدقيق أو تمحيص ،
وأكثرهم يذهبون — بنزعة التقليد — إلى الحكم على هذا
وذاك بالاحاد دون روية وإمعان . ولا يزال كثيرون الى يومنا هذا
يذهبون الى أن المعرى من المعطلين دون أن يكونوا قد درسوا أقواله
أو حققوا خفايا معتقده ، بل حكموا عليه من قراءة بيت قد يكون
الشاعر رمز فيه إلى أشياء تدق حتى على أقرب المتصلين به ، ونستطيع
أن نقول إن المعرى كان من أكابر الشعراء الرمزيين . وإن
كان لا يقصد الرمزية لذاتها كما يفسرها النقاد الفرنسيون ، ولا
حاولها كما يحاولها شعراء العصر . . ولكن كان المعرى يرمز إلى
أشياء يعرضها في ضباب من الألفاظ المعقدة ، توارياً عن الأفهام
البليدة التي كانت تقف له بالمرصاد ، وتفسر كلماته على غير مدلولها
ولا تتورع أن تنحله كلاماً لم يقله .

ولكن الحق لا بد من أن يسفر لدى عينين ، وسيظل الناس
فريقين : فريق المفكرين الذين يسمون بآرائهم ومثلهم العليا الى
السماكين ، وفريق البله الحشويين الذين ينزلون بتداركهم إلى أسفل
السافلين . وحسب المفكرين أن يظلوا في القمة ، لا يلتفتون الى هذا
الهراء الذي تلوكه ألسنة المرهصين الثرثارين . وسيظل ما كتبه
أبو العلاء آية من أجمل آيات الفكر البشري ، وحسبه فخراً أن يدافع
عنه رجل في كفاية ابن العديم . وهو من عرفت من المكافحة الأدبية
والفكرية وعلو القدر في مختلف الميادين .

والآن بعد هذه التوطئة ، تتكلم عن كتاب ابن العديم
الذي ألفه في الدفاع عن أبي العلاء ، وسماه « الإيضاح والتحرى
في دفع الظلم والتجري » : عن أبي العلاء المعري « والكتاب مفقود^(١)
وغير مطبوع ، عثر على نسخة مخطوطة في خزانة السيد مرعي باشا
الملاح أحد أعيان حلب ، وقد سمح بنسخ صورة عنها لمكتبة المجمع
العلمي العربي ، كما نسخ صورة عنها الشيخ راغب الطباخ ونشرها

(١) يقول البجامة المرحوم أحمد تيمور باشا في كتابه أبو العلاء المعري ص ٧ أثناء
تلامه عن يته « وذكروا أن كمال الدين بن العديم عقد فصلاً لتراجمهم وأخبارهم في كتابه

في كتابه « أعلام النبلاء » والمخطوطة في ٨٥ صفحة بقطع ربيع عادى^(١) وهى مخرومة من أولها وآخرها ، وهى غير كاملة ، فما تكاد تقرأها حتى تشعر أن خصوم أبى العلاء وقد قضاوا على الكثير من كتبه ، قد قضاوا على هذه الرسالة أيضاً

لقد كتب المعرى ما يقرب من مائة مؤلف ، فأين هى ؟ .. ليس بين أيدينا غير كتب معدودة قد لا تتجاوز الخمسة ، وكما استطاع الجناة - وجناة الفكر أشد خطراً على الإنسانية من الجناة الذين يرتكبون جرائم القتل - أن يقضوا على مؤلفات أبى العلاء ، فقد استطاعوا أن يقضوا على الكثير من الكتب التى دافعت عن كرامة العقل فى شخص أبى العلاء .

وتشاء الأقدار أن تحفظ لنا مقدمة الكتاب وهى وحدها كافية لأن ترينا بأية عاطفة صادقة ، وبأى تفكير حر دافع القاضى كمال الدين عن الشاعر أبى العلاء ، وقد علمت من تاريخ ابن العديم أنه إمام من أئمة الدين ، شغل منصب قاضى القضاة مدة طويلة ، وعرف بورعه وتقاه ، وكان لعائلته هذا المركز الدينى الخطير الذى يفرض

• دفع التجري عن أبى العلاء المعرى ، الا انى لم أظفر بهذا الكتاب مع كثرة بحثى وتفتيى

عنه ، . (١) مجلة المجمع العلمى العربى مجلد ٢ ج ٨ ص ٣٣٦

عليها أن تتماق عواطف الجمهور ، ومع ذلك فقد رأى ابن العديم أن
أبا العلاء مظلوم ، فأنبرى لـ انصافه من ظالميه ، وكان رائده الإيـ انصاف
والتحرى فى دفع هذه المظالم أو هذا الظلم والتجرى الذى صبّه حساده
عليه ... وهذا الذى يجعل لكلام ابن العديم أثره ومغزاه .

واستمع الآن كيف يدافع عنه ، وبأى أسلوب حار ولسان
ذرب يصب جام غضبه وتقمته على خصومه ، ولاشك أنك ستحس
فى مطاوى كلامه روح الثورة العاتية ، وكل ما أرجوه من القارئ
الكريم أن يتمهل فى القراءة خشية من أن يضيق بأسلوب القرن
السادس ، ومؤرخنا وإن التزم السجع فى دفاعه فان سبجه لا تنفر
منه الآذان ، ونحس فى بعض المواقف بجرس اللفظ قد مازج جمال
الفكرة ، حتى لينسى القارئ أنه يقرأ كلاماً مسجعاً ، ولا نسهب
فى الكلام عن المقدمة ، فحسبنا هذا الالماع ، ولنترك لابن العديم أن
يقدم كتابه بقلمه .

مقدمة ابن العديم

قال ابن العديم :

« الحمد لله الكريم العادل ، ذى الفضل الشامل ، والايحسان الكامل ، محق الحق ومبطل الباطل ، أحده على ما منحنا من التوفيق وهدانا به إلى سواء الطريق . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة من خلص له يقينه ، وصح بالوحدانية مذهبه ودينه ، وأشهد أن محمداً عبده الآواب ، ورسوله المبين للصواب ، أرسله بالآيات الباهرة ، والحجج الزاهرة ، والدلائل الظاهرة ، ففرق بين الصحيح والسقيم . والمعوج والقويم ، وهدى أمته إلى الصراط المستقيم ، صلى الله عليه وعلى آله الأكرمين ، وأصحابه الهداة المنتخبين ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ، فأنى وقفت على جملة من مصنفات عالم معرفة النعمان ، أبى العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان ، فوجدتها مشحونة بالفصاحة والبيان ، مودعة فنونا من الفوائد الحسان ، محتوية على أنواع الآداب ، مشتملة من علوم العرب على الخالص واللباب ، لا يجد الطامح فيها سقطة ، ولا يدرك الكاشح فيها غلطة .

ولما كانت مختصة بهذه الأوصاف ، مميزة على غيرها عند أهل
الإيصال ، قصده جماعة لم يعوا وعيه ، وحسدوه إذ لم ينالوا سعيه ،
فتبعوا كتبه على وجه الانتقاد ، ووجدوها خالية من الزيف والفساد ،
فحين علموا سلامتها من العيب والشين ، سلكوا فيها معه مسلك
الكذب والمين ، ورموه بالالحاد والتعطيل ، والعدول عن سواء
السييل . فمنهم من وضع على لسانه أقوال المألحة ، ومنهم من حل
كلامه على غير المعنى الذى قصده ، فجعلوا محاسنه عيوباً ، وحسناته
ذنوباً ، وعقله حمقاً ، وزهده فسقاً ، ورشقه باليم السهام ، وأخرجوه
عن الدين والإسلام ، وحرفوا كله عن مواضعه ، وأوقعوه فى
غير مواقعه .

ولو نظر الطاعن كلامه بعين الرضا ، وأغمد سيف الحسد من
عليه انتضى ، لأوسع له صدرًا وشرح ، واستحسن مآذم ومدح .
لكن جرى الزمن على عاداته ، فى مطالبته أهل الفضل بتراته
وقصدهم بإساءاته ، فسلط عليهم أبناءه ، وجعلهم أعداءه ، فقصدوه
بالطعن والإساءة والليب مقصود ، والأديب عن بلوغ الغرض
مضدود ، وكل ذى نعمة محسود .

ومن سلك فى الفصاحة مسلكه ، وأدرك من أنواع العلوم

ما أدركه ، وقصد في كتبه الغريب ، وأودعها كل معنى غريب ،
كان للطاعن سبيل الى عكس معانيها وقلوبها ، وتحريفها عن وجوهها
المقصودة وسببها .

ألا ترى الى كتاب الله العزيز ، المحتوى على المنع والتجوز ،
الذى لا يقبل التبديل في شىء من صفه ، ولا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه ، كيف أحال جماعة من أرباب باطل الاقاويل ،
تأويله على غير وجوه التأويل ، فصرفوا تأويله الى ما أرادوا ، فما
أحسنوا في ذلك ولا أجادوا ! حتى إن جماعة من الكفار ،
وأرباب الزلل والعتار ، تمسكوا منه بآيات ، جعلوها دليلا على
ما ذهبوا إليه من الضلالات .

فما ظنك بكلام رجل من البشر ، ليس بمعصوم إن ذل أو عثر ،
وقد تعمق في فصيح الكلام ، وآتى من اللغات بما لا يتيسر لغيره
ولا يرام ، وأودعها في كلامه أحسن إبداع ، وأبرزها في النظم
البديع والأسجاع ، إذا قصده بعض الحساد ، فحمل كلامه على
غير المراد !

وقد وضع أبو العلاء كتابا وسمه بـ « زجر النابح » ، أبطل فيه
طعن للزرى عليه والقادح ، وبين فيه عذره الصحيح ، وإني أنه

الصريح ، ووجه كلامه الفصيح ، ثم أتبع ذلك بكتاب وسمه : «نجر الزجر» بين فيه مواضع طعنوا بها عليه بيان الفجر ، فلم يمنعهم زجره ولا اتضح لهم عذره ، بل تحقق عندهم كفره ، واجترأوا على ذلك وداموا ، وعنفوا من انتصر له ولا مواء ، وقعدوا في أمره وقاموا ، فلم يرعوا له حرمة ، ولا أكرموا علمه ، ولا راقبوا إلا ولا ذمة ، حتى حكوا كفره بالأسانيد ، وشددوا في ذلك غاية التشديد ، وكفره من جاء بعدهم بالتقاليد .

فابتدرت دوته مناضلا ، وانتصبت عنه مجادلا ، وانتدبت لمحاسنه ناظلا ، وذكرت في هذا الكتاب مولده ونسبه وتحصيله للعلم وطلبه ، ودينه الصحيح ومذهبه ، وورعه الشديد وزهده ، واجتهاده القوي وجده ، وطعن القادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنه وصدده ، وسميته كتاب :

«الإينصاف والتحرى ، في دفع الظلم والتجري ، عن أبي العلاء المعري »

وبالله التوفيق والعصمة ، وإليه المرجع في كل وصمة ؛ وهو حسبي ونعم الوكيل .»

من هذه المقدمة نعرف أى نهج سلكه ابن العديم فى الدفاع عن أبى العلاء . لقد قرأ ما كتبه بامعان ، وقرأ ما كتبه خصومه بامعان أيضاً . وازن بين أدب أبى العلاء ونهجه الحر ، وبين مفتريات خصومه وإرهاصاتهم المضللة ؛ وانتهى من موازنته الى آراء سديدة دفعته الى كتابة رسالته هذه . وهو إذ ينصفه ويرد فيها على حاسديه يكشف ، خلال كلامه ، عن خصائص عبقريته . وهذه الصفحات القليلة من المقدمة ترينا مدى حيوية الفكر الحر - فكر ابن العديم القاضى المؤرخ السياسى - ولون النضال عن الآراء الحرة التى يحاول المتزمتون ، فى كل عصر ، تشويه جمالها ووأدها إن استطاعوا الى ذلك سبيلا

وننتقل الآن الى فصول الكتاب ؛ نقرأ سيرة شيخ المعرفة بقلم قاضى قضاة حلب .

نَبَأُ أَبِي الْعَلَاءِ وَعَالَتُهُ

لقد بدأ كتابه ، بعد المقدمة ، بالكلام عن نسب أبي العلاء .
وللعرب عناية كبرى بالأنساب رغم ما يعتور هذه العناية عند بعض
المؤرخين من تخليط وأوهام أحيانا . وبدهي أن يهتم ابن العديم
بنسبه ، وأن يبدأ هذا الفصل بذكر اسم أبي العلاء وأسماء آبائه
وأجداده . وأحب أن أعتقد أن القارئ الكريم يعرف أن اسم
أبي العلاء هو أحمد وأن اسم أبيه هو عبدالله واسم جده سليمان .
وقد لايهمه أن يعرف أكثر من هذا ، ولذلك لا أريد أن أكرر
هذه الأسماء أو هذا النسب الطويل الذي لم يكتف ابن العديم أن
يصله بقضاة وقحطان ، بل وصله بهود وإدريس وشيث وآدم !
ولو ذهبت أثبتته لضاق به القارئ ، وهذا الذي دفعني أن أهمله عمداً
مراعاة لأذواق الكثير من القراء الذين يضيقون بهذا التسلسل
المل الذي يصرفهم أحيانا عن متابعة القراءة ، ولأن أكثر من
ترجم له من القدماء والمحدثين قد أثبتوا هذا النسب في ترجماتهم ،
وهو لا يختلف عما أورده ياقوت وابن خلكان وسواهما في الماضي
وأحمد تيمور باشا وغيره في عصرنا هذا .

وفي هذا الفصل ، نقع على استطرادات أدبية وتاريخية طريفة
لابأس من الإلماع اليها أو إيرادها بنصها ، وقد كتب في هذا الفصل
تاريخ بيت أبي العلاء : من سبقه من الأدباء والأجداد ، وما تحدر
عن هذه العائلة من الأبناء والأحفاد ، ممن لهم خصائص ذهنية جديرة
بالذكر والتنويه ، كما كتب آراء طريفة عن البطون العربية وعن
ذوى المسكنة المرموقة ، ممن لهم أيضا صلة بسيرة أبي العلاء .

وهكذا ، فسيقرأ القارئ في هذه الفصول ، صفحات من
أسلوب ابن العديم ونهجه ، وهو مؤرخ كتب آلاف الصفحات في
التاريخ والأدب . بل سيعتبر سيرة أبي العلاء بقلم أديب مؤرخ عاش
في القرن السابع الهجري ، فامتزجت حياته بالأدب والسياسة والدين .
قال مؤرخنا الحاي ، وهو يتحدث عن قحطان وتيم اللات
وتنوخ ، عن الروم والفرس ، عن معرفة النعمان في الجاهلية
والإسلام وما إلى ذلك مما يتصل بالتنوخيين أجداد أبي العلاء :

وقحطان : هو مجتمع قبائل اليمن بأسرها . وتيم اللات :
مجتمع تنوخ بأسرها ، وإنما سموا « تنوخ » لأنهم تنخوا بالشام ،
وقيل بالخيرية ، أي أقاموا ، والتنوخ هو المقام في الموضع ، يقال تنخ
في الأمر أي رسخ فيه فهو تانخ . وكانوا أقاموا على مالك بن زهير

ابن عمر بن فهم بن تيم اللات ، ونزلوا معه الحيرة فاخططوها وبنوا فيها الأبنية وعمروها ، وهم أول من عمر الحيرة ونزلها .

وكان لهم قوة وبأس وغناء وكثرة ، فغزاهم سابور الأكبر ملك فارس في جيوش عظيمة ، فقاتلوه قتالا شديداً . ولم تنل الحرب بينهم أياماً ، فلحققت بسابور جيوشه وأمرأؤه . فضعفت « تنوخ » عن مقاومته وانكشفت ، فسار معظمهم ومن فيه نهوض منهم الى الضيزن بن معاوية التنوخي ، الى الحضر ، فأقاموا بها . وملكوا ما جاورهم من البلاد ، وأجلوا سائر الأمم عنها ، إلا من أدى اليهم الجزية ، فاشتدت شوكة تنوخ ، وعظم بأسهم فلكوا عليهم الساطع وهو النعمان بن عدى ، وإنما سمي الساطع لجماله وبهائه وكان طويلاً وسيماً جواداً شجاعاً ، فملك عليهم برهة . وكانت له حروب ووقائع مع ملوك الفرس ، وشن الغارات على السواد ، فسميت « تنوخ » يومئذ « الدواسر » لما ظهر من شدتهم وبأسهم . وبعض الجاهل يقول : إن معرفة النعمان تنسب اليه ، وليس بصحيح . بل تنسب الى النعمان بن بشير الانصارى . وكان والياً على حمص وقسرين في ولاية معاوية وابنه يزيد ، ومات للنعمان بها ولد ، وجدد عماراتها فنسبت اليه ، وكانت تسمى أولاً « ذات

القصور». وقيل إن «سيث» كانت المدينة وهي أهلة فخرج ابن النعمان بن بشير يتصيد، وكان موضع المعرة أجمة، فاقترسه السبع فجزع عليه، وبني له موضعاً عند قبره، فبني الناس لبنائه، فنسبت معرة النعمان إليه لذلك. وإنما نسبت الجملال المعرة إلى النعمان بن عدى المعروف بالساطع، لأن أهله كلهم أو بعضهم من بني الساطع، فظنوا أنها منسوبة إليه، ولما هلك الساطع تفرقت كلمة «تنوخ» وتشتت أمرهم، وتنازعوا الرياسة بعده.

ثم إن ملك الفرس غزا الروم، فأذرع فيهم القتل، وسبى الذراري، وخرب العائر، فأنفذ ملك الروم إلى «تنوخ» وكانت أقرب القبائل إليه في ذلك العصر، فاستنجدهم على ملك الفرس، فأجابه، وقاتلوا معه قتالاً شديداً، ثم سألوا ملك الروم أن يتولوا حرب الفرس منفردين عن جند الروم، لتظهر له طاعتهم وغناؤهم، فأجابهم إلى ذلك؛ فقاتلوا الفرس. وظفروا بهم، وقتلوه قتلًا ذريعاً، وأبلوا بلاءً عظيماً، فأعجب بهم ملك الروم، وفرق فيهم الدنانير والثياب وقربهم وأدنانهم، وأقطعهم سورية وما جاورها من البلاد إلى الجزيرة؛ وهي مدينة بقرب الأحص على جانب البرية، وإليها ينسب اللسان السوراني.

هذا منتهى أمرهم في الجاهلية . فلما جاء الإسلام ، قدموا مع
أبي عبيدة بن الجراح ، رضى الله عنه ، وكانوا أشد من معه من
العرب شوكاً وأكثرهم عدداً ، فافتحوا البلاد ، واختطوا الخطط ،
ونزلوا قنسرين ومنبج وسورية وحماة ومعرة النعمان وكفر طاب
وغيرها من بلاد الإسلام ، وتغلبوا عليها ، وكانوا على دين النصرانية
فامتنعوا من أداء الجزية ، وقالوا : ما نؤدى ما يقع عليه اسم الجزية ،
وكانوا أهل قوة وبأس ، فلما سار عمر رضى الله عنه إلى الشام قدموا
عليه فقال : ما أقنع منكم إلا بالدخول في الإسلام أو بالسيف ، وأمهلهم
سنتين ، ثم إنه ألزمهم ما يلزم أهل الذمة من الجزية فأبوا عليه ، وقالوا :
خذ المال منا على اسم الصدقة دون اسم الجزية ، فأبى عمر ، ثم أجابهم
إلى أن يأخذها على اسم الخراج ، فاستجاب له قوم منهم ، وأقاموا
بديارهم ، وكان منهم أجداد أبي العلاء وأجداد بنى الفصيصة ولادة
قنسرين ، وأسلم بعضهم في أيام أبي عبيدة ، وبعضهم في أيام المهدي بن
المنصور ، ودخل منهم قوم إلى بلاد الروم مع جيلة بن الأيهم في النصرانية
وتنوخ من أكثر العرب مناقب وحسباً ، ومن أعظمها
مفاخر وأدباً ، وفيهم الخطباء والفصحاء والبلغاء والشعراء .

وبعد أن يلعب ابن العديم إلى البيوت التي تفرعت عن تنوخ

والتي تحدر منها أبو العلاء ، وبعد أن يذهب في هذه الاستطرادات التاريخية ، يبدأ بتاريخ أجداد أبي العلاء فيقول :

وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بنى سليمان ، وهو سليمان بن داود بن المطهر ، وحيث انتهى بنا القول إلى التنبيه على كثرة القضاة والفضلاء من بنى سليمان ، فنذكر الآن من اشتهر منهم بذلك بـعرة النعمان ، فمنهم أبو الحسن سليمان ابن أحمد ، أول من تولى منهم معرة النعمان ، وقال بعض الناس : إنه ولى قضاءها في سنة تسعين ومائتين إلى أن مات ، وبعضهم يقول : إن الذي تولى القضاء ستة تسعين ومائتين هو ابنه ، وهذا هو جد جد الشيخ أبي العلاء . ومنهم ولد المذكور ، وهو جد أبي الشيخ أبي العلاء ، أبو بكر محمد بن سليمان بن أحمد ، ولى القضاء بمعرة النعمان بعد موت أبيه في حدود الثلاثمائة ، وقيل هو الذي تولى سنة ٢٩٠ وكان فاضلاً أديباً ممدوحاً ، وفيه يقول أبو بكر الصنوبري :

بأبي يابن سليما	ن لقد سدت تنوخا
وهم السادة شبا	نَّا لعمرى وشيوخا
أدرك البغية من أض	حى بناديك منيخا
وارداً عندك نيلا	وفراتا ويليخا

واجداً منك متى استهـ رخ للمجد صريخا

في زمان غادر الهما ت في الناس مسوخا

وإذ يصل إلى أجداده الأدينين ، يؤرخ لهم بإيجاز . يذكر
نبذة من حياتهم ، وما تميزوا به من الفضائل ، وما شغلوه من المناصب
وما قرأوه من كتب ، وما قالوه من بدائع الشعر . وقد يروى لبعضهم
مقطوعات مما يقتضيه سياق الكلام . فهذا القاضي أبو بكر يصف
شمعة كانت تؤنس الجلاس في ليلة طاب فيها اللهو وصفا السمر :

وصفراء كالتمر مقدودة تسر وتؤنس جلاسها

ومنها : تكون لطالب مقياسها فوق الذراع إذا قاسها

توت إذا أهملوا أمرها وتحيا إذا قطعوا راسها

ويفتى الدجى بسنى نورها إذا شهد القبض أنفاسها

وتبكي فيقطر من رأسها نجوم ترصع لباسها

يرى الشرب نجما بها طالعا وشمسا إذا جأيت كاسها

أنسا بها ورأينا السرور فلا عدم الشرب إيناسها

وهذا ابنه أبو الحسن الذي تولى قضاء المعرة ، ثم قضاء حمص
التي أشجته نوايرها ، فوصف أئنيها وصفاً مشجياً ، بل وصف أئنيته

على فراق صحبه ، وهوموه من وحدته ، وتذرافه الدمع على ماتصرم
من أيام عمره . وصف هذه الحالات النفسية على نغماتها الشجية المحزنة :

وباكية على النهر	تئن ، ودمعها يجرى
تذكرنى بأحبابى	وحالى ليلة النفر
وأذرى مثلاً تذى	وأسعدھا وماتدى !
على فقدى لأحبابى	وما قد فات من عمرى !
فماهى فيه مشهور	وما أنا فيه فى الستر
كأنى فى بسيط الأرق	ض بين الناس فى قبر

وهذا أبو محمد عبد الله بن سليمان — والد أبي العلاء —
الأديب اللغوى الشاعر ، فلا يعفيه من بعض مقطوعات من شعره
رونيها له ، وقد لا يطر بنا شعر أبيه فى رثاء جاريتة بقدر ما يهزنا
رثاء المعرى نفسه فى أبيه ، تلك القصيدة التى اقتبس ابن العديم
بعض أبياتها ، وهى تدلنا على مدى حزن أبي العلاء ودموعه الحرى
على فقد أبيه :

أبى : . حكمت فيه الليالى ولم تزل

رماح المنايا قادات على الطعن

فيا ليت شعري هل يخف وقاره

إذا صار « أحد » في القيامة كالعهن

وهل يرد الحوض الروى مبادراً

مع الناس أو يأبى الزحام فيستأني

ويمضى ابن العديم في حديثه عن إخوة أبي العلاء : عن أبي

المجد ، عن أبي الهيثم — والآخر شاعر مجيد ، روى عنه أبو العلاء

شيئاً من شعره ، ثم جمع شعره لولده زيد بن عبد الواحد ، وأورد

مقطوعة كان يرويها أبو العلاء ، وهي تدلنا على مدى عناية أخيه

بأثریات البلاد ، فقد قدم مرة على « سياث » فوجد بها رجلاً يقلع

حجارة ، فكتب على حائط من حيطانها بمعلول ، هذه الأبيات :

مررت بربع من « سياث » فراعني

به زجل الأحجار تحت المعاول

تناولها عبل الذراع كأنما

جنى الدهر فيما بينهم حرب وائل

أمتلفها ؟ شلت يمينك ! خلها لمعتبر ، أو زائر ، أو مسائل

منازل قوم حدثتنا حديثهم

فلم أر أحلى من حديث المنازل

ولأبي المجد - الأخ الأكبر - ديوان شعر أيضاً . وله ولدان وليا قضاء المعرة ، أحدهما أبو محمد والثاني أبو الحسن ، وقد تولى أبو محمد خدمة عمه بنفسه وكان برّاً به ، وكان يكتب له تصانيفه ، وهذا الذي حداً أبا العلاء أن ينعم بصحبة ابن أخيه وأن يمدحه بهذا الشعر الذي يدل على مدى ما قام به هذا القاضي من إجلال لعمه أبي العلاء :

وقاض لا ينام الليل عني	وطول نهاره بين الخصوم
يكون أبرّ بي من فرخ نسر	بوالده ، وألطف من حميم
سأنشر شكره في يوم حشر	أجل ، وعلى الصراط المستقيم
ويروى لنا ابن العديم قطعة ثانية لأبي العلاء في مدح ابن أخيه :	
أعبد الله ، ما أسدى جيلاً	نظير جميل فعلك غير أمي
سقتني درهماً ، ودعت وبات	تعوذني وتقرأ أو تسمى
همت بأن تجنّبني الرزايا	فرمت وقايتي من كل همي
كأن الله يلهمك اختياري	فتفعله ، ولم يخطر بوهي
حمدتك في الحياة أتم حمد	وأياي ذمت أتم ذم
أجلك ما تركت وأنت قاض	تعهد مقعد أعنى أصم
جزاك البارئ ابن أخ كريماً	أبرّ بمعجز في برّ عم

وما يزال يؤرخ أجداد أبي العلاء وأحفادهم ، واحداً بعد الآخر
حتى يصل إلى آخر عقب لهذه الأسرة ، لأستاذه الشيخ أبي إسحق
إبراهيم الأديب المحدث الذي اعتمده الملك العادل في مهمة
فأرسله إلى حلب والموصل رسولا عنه . وكأن ابن العديم لا يريد
أن يترك غصناً من هذه الشجرة الباسقة إلا مرّ عليه يتأمل محاسنه ،
وما يزال حتى يقتطف لكتابه بعض ثماره . فهذا مدرك ، أو أبوسهل
أحد أفراد هذه العائلة الكريمة تعصف به الأسفار إلى مصر
فيكتب عنها ما لا يروق محبي مصر . . ماذا ؟ لقد هجا مصر هجاء
مرأ ، ومع أن مصر قد عرفت بكرمها المتناهي للضيف ، ويعطفها
على الغريب . فقد لقي أبوسهل أحد أحفاد أبي العلاء عتاً وظلماً
وجوراً حتى انفجر صدره بهذين البيتين :

ظلمت مصر وجارت لا جرى النيل عليها

فلحى الله زماناً أحوج الناس إليها

ولأبي سهل هذا شعر رواه ابن العديم في كتابه يدل على أن
الغربة آلمت أباسهل . وأنه لقي في سفره ألواناً من الألم عبر عنها
بهذه الشكوى الحزينة :

إذا لم تستطع سكنى بلاد نشأت بها ، فكن منها قريبا

بحيث تشم نشر الريح منها وتسأل مخبراً عنها مجيئاً
فان أشد أحداث الليالى على الإنسان أن يمسي غريباً
بأرض لا يرى فيها صديقاً يسرّ به ، ولا يلتقى حبيباً

* *

وبعد ، فقد طال هذا الفصل ؛ وقد أوجزت ما استطعت
الإيجاز . وهكذا ، ينهى كلامه ، بعد تاريخ من اشتهر من أفراد
هذه العائلة حتى الذين عاصروه ، بهذه الجملة :

« فهذه نبذة من ذكر فضلاء بنى سليمان وقضاتهم وعلمائهم ،
ومن أراد استقصاء أخبارهم وفضائلهم وأشعارهم فعليه بكتابتى المطول
فى تاريخ حلب ، ففيه مقنع لمن قصد شيئاً من ذلك وطلب »

فأين جميع أجزاء ذلك الكتاب ؟ وهل يتاح لنا أن نرد بعض
أجزائه المتفرقة فى مكتبات الشرق والغرب إلى موطنه الأصيل ؟
وهل يقدر لنا أن نشر هذه الموسوعة التاريخية الكبرى فى يوم ما
نشر ايرضى عنه العلم والأدب ؟

أرجو ذلك !

سوره . عماء . صفة خلقه

بعد أن استوفى ابن العديم الكلام على نسب أبي العلاء وعلى أفراد عائلته في أكثر من عشرين صفحة من هذا الكتاب ، تكلم عن مولده ومنشئه وعماء وصفة خلقه ، فقال :

« أما مولده فبمعرة النعمان ، وأمه هي بنت محمد بن سبيكة ، وأظن أن أباه من أهل حلب ، وخاله علي بن محمد سبيكة الذي يقول فيه :

كأن بني سبيكة فوق طير

يحبون الغوائر والنجادا

وتوفيت والدته وهو غائب عنها حين رحل إلى بغداد سنة أربعمائة ، وقد رثاها بأبيات هي في « سقط الزند » وقرأت بخط أحمد بن علي بن عبد اللطيف المعري ، وهو أحد من قرأ على أبي العلاء وروى عنه ، ويعرف بابن زريق ، قال : وولد - يعني أبا العلاء - يوم الجمعة ، عند غروب الشمس ، لثلاثة أيام مضت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة .

ونقلت من خط الأديب الأستاذ أبي عبد الله محمد بن علي
العظيمي الحلبي في تاريخه ، وأنبأ به عند المؤيد بن محمد النيسابوري
وغيره ، قال : وفيها — « يعني سنة ثلاث وستين وثلاثمائة »
ولد الشيخ أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي بمعة
النعمان من رقعة الشام . قال العميد : ولد أبو العلاء في سنة
ست وستين .

وهذا العميد الذي نقل عنه العظيمي ، هو العميد أبو يسر ،
خير بن محمد بن علي التنوخي المعري . وهذا ليس بصحيح .
وذكر الوزير أبو غالب ، عبد الواحد بن مسعود بن الحصين
الشياني في كتابه الذي جمعه في « المختار من أشعار الشعراء »
وذكرهم على حروف المعجم ، وأخبرنا بذلك إجازة عنه الحافظ
بوعبد الله محمد بن محمود بن النجار ، قال : « ولد — يعني أبا العلاء —
لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ست وستين وثلاثمائة ، ومرضت
عيناه في سن الطفولية وذهبتا . والصحيح في مولده ما أخبرنا به
أبو اليمن ، زيد بن الحسن بن زيد الكندي كتابة وقراءة عليه » .
وعلى هذا النسق يروى أكثر من رواية واحدة تدل على مدى
قده وما يزال ينفي رواية ويثبت أخرى إلى أن يطمئن هوسه في

حادثة مولده .

فاذا اطمأن إلى هذه الناحية تكلم على ذهاب بصره بقوله :
« أخبرنا أبو القاسم الحسين بن عبد الله بن رواحة الحموي ، قال :
أخبرنا أبو طاهر أحمد بن محمد الحافظ ، إجازة إن لم يكن سمعاً ، قال :
سمعتَه - يعني أبا محمد عبد الله بن الوليد بن غريب الأيادي المعري -
يقول :

دخلت على أبي العلاء وأنا صبي مع عمي أبي طاهر نزوره ،
فرأيتَه قاعداً على سجادة لبد ، وهو يسبح ، فدعا ومسح على رأسي
وكأني أنظر إليه الساعة وإلى عينيه وإحداها بارزة والأخرى غائرة
جداً ، وهو مجدّر الوجه نحيف الجسم . »

إشغاله بالعلم وشيوره

ثم يعتقد ابن العديم فصلاً عن اشتغاله بالعلم، وشيوخه الذين أخذ عنهم، فنفهم من هذا الفصل أنه قرأ القرآن العظيم بالروايات على شيوخ يشار إليهم في القراءات، وقرأ اللغة والنحو بمرّة النعمان على والده، ودخل، وهو صبي، إلى حلب فقرأ بها على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي راوية أبي الطيب المتنبي. يقول ابن العديم: «وقرأت بخط بعض أهل الأدب، وأظنه محمد بن الخضر بن أبي مهزول المعروف بالسابق، قال: وكان ابن سعد يروى في ديوانه — يعني ديوان المتنبي — في قصيدته التي مطلعها:

أزائر ياخيال أم عائد

وذلك أنها لم تكن مما قرأه على المتنبي، وهي مما أنفذه إليه:

أو موضعاً في فناء ناحية تحمل في التاج هامة العاقد

فرد عليه أبو العلاء وقد اجتمع معه بحسب وهو صبي.

أو موضعاً في فتن ناحية

فلم يقبل ذلك ابن سعد، ومضى إلى نسخة عراقية صعدت

مع أبي علي بن أريس من العراق فوجد القول ماقاله أبو العلاء.

ثم سافر إلى بغداد في سنة تسع وتسعين للاستكثار من العلم، فأخذ بها عن أبي الحسن علي بن عيسى الربعي، وأبي أحمد عبد السلام ابن الحسين البصري المعروف بالواجكا، وأبي علي بن الحسن بن حكيم السكري التحوي اللغوي، وذكر أبو البركات علي بن أحمد بن محمد ابن أبي سعيد الأنباري في طبقات الأدباء له قال: وذكر أنه — يعني أبا العلاء — لما قدم بغداد دخل علي بن عيسى الربعي ليقراً عليه شيئاً من النحو فقال له الربعي: ليصعد الـاصطبل^(١) فخرج من عنده مغضباً فلم يعد إليه.

ثم قال: وبلغني أنه إنما دخل إلى بغداد لتعرض عليه الكتب التي في خزائن بغداد، لما وصف له من كثرتها، ولم تكن رحلته لطلب دنيا.

وقد ذكر في بعض كلامه وسنورده بتمامه: وأحلف ماسافرت أستكثر من النشب، ولا أتكثر بلقاء الرجال، ولكن آثرت الـإقامة بدار العلم، فشاهدت أنفس ما كان لم يدعف الزمن باقامتي فيه. ثم ذكر العلماء الثقات الذين أخذ عنهم الحديث، وهم كثرة، ولكن الذي لفت نظرنا من جميع من ذكرهم ابن العديم اسم سيدة

(١) الـاصطبل هو الاعمى بلغة أهل الشام على رواية ياقوت، وفي شفاء الغليل

الـهخاجي أن اللفظة معربة

روى عنها الحديث ..

أتدرى من هذه المحدثه الفاضلة ؟ هي جدة أبي العلاء أم سلمى بنت الحسن بن إسحق بن ببلل ، وقد أضاف هذا الاسم إلى طبقة المحدثين ليرينا أى بيت هذا الذى لمعت فى سمائه هذه الكوكب الساطعة والنجوم المشرقة .

ويختتم ابن العديم هذا الفصل بقوله :

« وخرج من حديثه سبعة أجزاء رويت عنه ، وهى عندى بخط أبى الحسن على بن عبد الله بن محمد بن أبى جرادة ، رواها عن أحمد ابن على بن عبد اللطيف بن زريق المعرى عنه . »

تلخيص أبي العلاء

وقد عقد ابن العديم بعد هذا الفصل فصلاً آخر .

حدثنا في الفصل الماضي عن أساتذته، وكان لابد من أن يحدثنا في هذا الفصل عن تلامذته : من قرأ على أبي العلاء، أو روى عنه ، فذكر طائفة من أئمة العلماء والأدباء والمحدثين ، من أهل بلده ، من الشاميين ، من الحلبيين ، من الأندلسيين ، ومن أكثر البقاع الإسلامية وقد ملأت هذه الأسماء أكثر من صفحة واحدة . وهنا يقول ابن العديم : «فهؤلاء كلهم أئمة وقضاة وعلماء أثبات ، وأدباء رواة ، وحفاظ ثقات ، رروا عن أبي العلاء وكتبوا عنه ، وأخذوا العلم واستفادوا منه لم يذكره أحد منهم بطعن ، ولم ينسب حديثه إلى ضعف ولا وهن»

لقد كتب ابن العديم هذه الجملة بعد أن أورد ما يقرب من مئة اسم من أكابر العلماء والقضاة والأئمة ممن عرفوا بالورع والزهد والتقى ، ليؤيد وجهة نظره في الدفاع عن أبي العلاء ، ولبيان أن مقتريات خصومه واهية لا أساس لها .

ثم يختم هذا الفصل بقوله :

«وكتب إلينا أبو القاسم عيسى بن عبد العزيز من الإسكندرية أنه سمع أحمد بن محمد الأصبهاني الحافظ يقول : وأما هذان الإمامان - يعنى أبا زكريا التبريزي وأبا المكارم الأبهري - فمن أجلاء من رأيتهم من أهل الأدب ، والمتبحرين في علوم العرب ، وإلى أبي العلاء انتمأؤهما ، وفي العربية اعتزاؤهما . وقد أقاما عنده برهة من الزمن للقراءة ، والأخذ عنه والاستفادة ؛ وقد أدركت سواهما جماعة من أصحابه الناقلين عنه بمكة والعراق والجليل والشام وديار مصر ، وأنشدوني عنه ما أنشدتهم وحدثهم ؛ ومن جملتهم أبو إبراهيم الخليل ابن عبد الجبار القرائي . رأيت به بقزوين ، وروى لي عنه حديثاً واحداً مسنداً يرويه عن أصحاب خيشمة بن سليمان القرشي الطرابلسي ، وأقام أبو زكريا التبريزي أكثر من سنتين يقرأ عليه »

وهكذا ، فقد كان يقصده العلماء من أقصى البلدان الإسلامية يأخذون عنه العلم والشعر والأدب . وقد يتجاوزون ذلك إلى القصة والحديث والتصوف ، ثم يعودون وقد ملأوا الدنيا إعجاباً بما رأوه من عبقرية هذا الفيلسوف الزاهد المتواضع الذي أوى إلى قريته بعيداً عن الناس . لا تستهويه هذه الضلالات التي تستهوى الكثيرين من البشر ..!

سيره الزينة

وإذ كان المعري متهماً في عقيدته وعُرف بين العوام وأنصاف المتعلمين بالتعطيل والزندقة ، كان هم ابن العديم أن ينفي عنه هذه التهم الباطلة ، وأن يحيط بحياته بكل ما يدفع عنه هذه الريب والشكوك . لقد حدثنا عن نشأته ، وعن جانب من طفولته وحدثاته ، عن أساتذته ، وعن أخذ عنهم من الأئمة والقضاة - وكانهم قد عرف بالورع والتقوى وبالزهد والتجرد - وكان لا بد له بعد هذه التوطئة من أن يعقد فصلاً عن ميوله الدينية ، ولكنه لم يحاول أن يبحث هذه الناحية لذاتها ، بل لجأ إلى ما يؤكد أن المعري كان من أبعد العلماء عن هذه التهم التي لفتتها خصومه وحاسدوه .

ولقد ضاف ابن العديم إلى فصول كتابه فصلاً ذكر فيه شيئاً مما وقع إليه من الأحاديث النبوية عن أبي العلاء مسنداً ، ورواة الأحاديث المسندة ممن اتصفوا بالتقوى والورع ، فنقل عن أبي العلاء عدة أحاديث مسندة عن النبي ﷺ ليجلو هذه الناحية من حياته .

قال ابن العديم :

« أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي بن البنا بدمشق ، وأبو سعد

ثابت بن مشرف بن أبي السعد البنا بحلب البغداديان ، قالوا :
 أخبرنا أبو بكر محمد بن عبيد الله بن نصر الزاغوني ، حدثنا أبو طاهر
 محمد بن أحمد بن أبي الصقر الخطيب الأنباري من لفظه ، أخبرنا
 أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي بقراءتي عليه في داره
 بعمرة النعمان ، حدثني أبو زكريا يحيى بن مسعر التنوخي المعري ،
 حدثنا أبو عروبة بن أبي معشر الحراني ، حدثنا هو بر ، حدثنا مخلد بن
 عيسى الخياط ، عن أبي الزناد ، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ
 أنه كان يقول :

إن الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وإن الصدقة
 تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، فالصلاة نور المؤمن ، والصيام
 جنة من النار .

وقد روى عدة أحاديث مسندة على هذا النسق ، ولعله أراد ،
 كما قلت ، أن يضيء بعض جوانب من حياته بهذه النواحي المشرقة
 من حياة العلماء ليرد من طريق غير مباشر على خصومه الذين
 جردوه من الإيمان ووضعوه في طليعة الملحدين المعطلين .

كتاب أبي العلاء

وينتقل ابن العديم من هذا الفصل إلى فصل آخر ، خصه بكتّاب أبي العلاء الذين كانوا يكتبون له ما ينشئه من النثر والنظم والتصنيف والإيملاء ، وقد لا يهيم القارئ أن نعدده جميع من ذكرهم ابن العديم فحسبنا أن نلجأ إلى بعضهم ، فمنهم ابن أخيه الذي تقدم ذكره والذي كان برّاً بعمه أبي العلاء فدحه بأكثر من قصيدة واحدة . وجعفر ابن صالح . وأبو الحسن علي بن عبد الله الذي يقول ابن العديم عنه : إنه من العدول الأمناء الفضلاء ، وهو الذي لزم الشيخ أبا العلاء وكتب كتيبه بأسرها : كتب من المصنف الواحد عدة نسخ ، وكان خطه مورقاً ، حسن الضبط والإتقان .

ثم قال :

« ووقفت على فصل في ذكره للشيخ أبي العلاء قال فيه : لزمّت مسكني منذ سنة أربعائة . واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتجيده إلا أن اضطر إلى غير ذلك ، فأملت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبيد الله بن أبي هاشم ، أحسن الله معونته فألزمني بذلك حقوقاً جمة . وأيادي بيضاء ، لأنه أفنى في زمنه . ولم

يأخذ عما صنع منه . والله يحسن له الجزاء . ويكفيه حوادث الزمن
والأرزاء »

ثم عدد غير واحد ممن كتب له ولازمه . وما زال حتى ختم
هذا الفصل بهذه الفقرة :

« ومن كتابه جماعة من بنى أبي هاشم لا أتحقق أسمائهم ، فأننى
وقفت على رسالة لأبي العلاء تعرف برسالة « الضبعين » كتبها إلى
معز الدولة : قال بن صالح يشكو إليه رجلين : أحدهما الشريف بن المحبرة
الحلبى ، كان يؤلبان الناس عليه . وينسبانه إلى الكفر والإلحاد ، وقد
حرفا بيتاً من « لزوم ما لا يلزم » عن موضعه ليثبت عليه الكفر بذلك ،
قال فيها : « وفى حلب ، حماها الله ، نُسَخ من هذا الكتاب بخطوط
قوم ثقات يعرفون ببني أبي هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بجبل
الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه ، وإن أحضرت
ظهرت الحجة بما قلت فيه » .

وهكذا ، فلا يترك ابن العديم نبذة أو حادثة تبرئه من وشايات
خصومه إلا أثبتتها فى كتابه .

تصانيفه وتأليفه

وفي معجم الأدباء لياقوت فصل خاص عن أبي العلاء المعري يحتل أكثر من مائة صفحة عرض فيه إلى يده ونسبه وشعره ونثره ومعتقده وآراء خصومه فيه ، كما عرض إلى مكتبته ورسائله ، ومن يرجع إلى هذا الفصل ويقارنه بما كتبه ابن العديم في الفصل الذي أتى فيه « على ذكر تصانيفه ومجموعاته وتأليفه وأشعاره المدونة ورسائله المفننة » — يتراءى له أن النص واحد وإن اختلفا بعض الاختلاف ..

فمن من الأدبيين اعتمد على الآخر في كتابة هذا الفصل ؟ أحب أن أعتقد أن ياقوت بعد أن جمع كل ما قبل عن أبي العلاء سواء له أو عليه — اعتمد ابن العديم في كتابة هذا الفصل لما اتصف به قاضي القضاة من البحث والتحقيق ، وكما اعتمده في تاريخ بني العديم لكتابته هذا ، فقد اعتمده في هذا الفصل ، ولا نتردد أن نقول إن ياقوت قد اطلع على رسالة « الانصاف والتحرى » فأخذ منها مراحه وترك ما لا يتلاءم ورأيه ، ورأى ياقوت في أبي العلاء هو غير رأى ابن العديم . نعم ، لا نتردد أن نقول إن ياقوت اطلع

على رسالة ابن العديم ، وحجتنا أنه ألمع إلى الرسالة في غير موضع واحد . .

يسرد ياقوت جميع كتب أبي العلاء ويصفها دون تعليق عليها أو يعلق عليها برأى خصومه ، على حين أن ابن العديم لا يترك فرصة دون أن يبرئه مما اتهم به ، ولا يتردد أن يرد على خصومه . فعند ما أورد ياقوت ذكر كتاب « الفصول والغايات » مثلاً وصف الكتاب بما يأتي :

« والمراد بالغايات القوافي ، لأن القافية غاية البيت ، أى منتهاه . وهو كتاب موضوع على حروف المعجم . ما خلا الألف لأن فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألفاً ، ومن المحال أن يجمع بين ألفين ، ولكن تجيء الهمزة وقبلها ألف ، مثل العطاء والكساء وكذلك الشراب والسراب في الباء . ثم على هذا الترتيب ، ولم يعتمد فيه أن تكون الحروف التى يبنى عليها مستوية الإعراب ، بل تجيء مختلفة . وفى الكتاب قواف تجيء على نسق واحد ، وليست الملقبة بالغايات ، ومجيئها على حرف واحد . مثل أن يقال : عمامها ، وغلामها ، وغمامها ، وأمرأ ، وتراً ، وما أشبه . وفيه فنون كثيرة من هذا النوع . وقيل إنه بدأ بهذا الكتاب

قبل رحلته إلى بغداد وأتمه يعد عوده إلى معرة النعمان . وهو سبعة أجزاء ، مقداره مائة كراسة^(١) .

أما ابن العديم فمع إثباته بعض هذا الوصف . أضاف إلى ذلك قوله : . . وهو الكتاب الذى افترى عليه بسببه . وقيل إنه عارض به السور والآيات تعدياً عليه وظالماً ، وإفكاً به أقدموا عليه وإثماً . فان الكتاب ليس من باب المعارضة فى شىء . ومقداره مائة كراسة . وقل مثل ذلك فى كتاب « زجر الناجح » الذى ردفه أبو العلاء على من تحرش به لتأليفه ديوانه « لزوم مالا يلزم » فقد فسر ياقوت أسبـلب وضع كتاب « زجر الناجح » بقوله :

« إن بعض الجهال تكلم على أبيات من لزوم مالا يلزم يريد بها التشـرر والأذية ، فألزم أبا العلاء أصدقائه أن ينشئ هذا فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره^(٢) »

على حين أن ابن العديم لا يعمد إلى التلميح بل يصرح بطريقته فيقول : وله كتاب يتعلق بلزوم مالا يلزم أيضاً سماه « زجر الناجح » يرد فيه على من طعن عليه فى أبيات من هذا الكتاب ، ونسبه إلى

(١) معجم الأدباء ج ٣ ص ١٤٦ طبعة مصر

(٢) المصدر نفسه

الكفر فيها ، فبين وجوهها ومعانيها . وكتاب يتعلق بلزوم مالا يلزم أيضاً سماه « نجر الزجر » يعنى أصل الزجر وضعه بعد هذا الكتاب الأول ، يرد فيه أيضاً على من طعن عليه في أبيات غير الأبيات المذكورة في زجر الناجح . ويعرضها محرفة عن مواضعها . فبين التحريف ، وبين وجوه تلك الأبيات ومعانيها «

وقيمة ياقوت أنه جمع طائفة من الأقوال والنصوص ، سواء من كان مع أبي العلاء أو عليه ، بخلاف ابن العديم الذى كان يبرىء أبا العلاء من جميع ما اتهم به . يقول ياقوت :

« والناس في أبي العلاء مختلفون . فمنهم من يقول : إنه كان زنديقاً ، وينسبون إليه أشياء مما ذكرناها . ومنهم من يقول : كان زاهداً عابداً متقلاً . يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة والقناعة باليسير . والاعراض عن أعراض الدنيا » (١) فما هو رأى ياقوت ؟

إنه لا يخرج أن يحكم عليه بسوء المعتقد حين يقول : « وكان متهماً في دينه . يرى رأى البراهمة (٢) . لا يرى إفساد

(١) معجم الأدباء ، ج ٣ ص ١٤٢ طبعة مصر

(٢) قوم من البراهمة لا يجوزون بعثة الرسل

الصورة ، ولا يأكل لحماً ، ولا يؤمن بالرسل والبعث والنشور .
وعاش شيئاً وثمانين سنة ، لم يأكل اللحم منها خمسا وأربعين سنة
وحدث أنه مرض مرة فوصف الطيب له الفروج (١) . فلما جرى
به لمسه بيده وقال : « استضعفوك فوصفوك ، هلاً وصفوا شبل
الأسدا . وقد أوردنا من شعره ما يستدل به على سوء معتقده ، ويخبرك
بنحلته ومستنده » (٢)

ولعل هذه الآراء الخاطئة هي التي حدثت بابن العديم أن يكتب
رسالته التي نحن بصدد ها . وكأن ياقوت لم يطمئن إلى حكمه على
العلاء ، فما كاد يترسل في حديثه عنه حتى أخذ ينتقض رأيه ببذلة
لابن العديم ينقلها من كتابه « الإيضاف والتحرى » فيقول :

« قال - أي كمال الدين - : وقرأت بخط أبي المعري في ذكره
وكان ، رضى الله عنه ، يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل ، وتعمل
تلامذته وغيرهم على إسانه الأشعار ، يضمنونها أقاويل الملوحة قصداً
لهلاكه ، وإيثاراً لا تلاف نفسه ، فقال - رضى الله عنه - :

حاول إهوانى قوم فما واجهتهم إلا بإهوان

(١) الدجاج الصغير

(٢) معجم الأدباء الجزء الثالث ص ١٢٥ طبعة مصر

يخرشوني بسعائياتهم فغيروا نية أخواني
لو استطاعوا لو شوا بي إلى الـ مريخ في الشهب وكيوان
وقال أيضاً :

غريت بذميّ أمة وبمحمد خالقها غريت
وعبدت ربي ما استطعت ومن برّيته بريت
وفرتي الجهال حا سدة على وما فريت
سعرّوا على فلم أحس وعندهم آني هريت
وليس علينا بعد هذه التوطئة من أن نسرد أئماء كتب
ورسائل أبي الملاء التي أوردوها ابن العديم في كتابه ، فهذا الفصل
وإن طال لا يخلو من فائدة .

قال ابن العديم :

فأول ما ألف بعد انقطاعه في منزله ، بعد رجوعه من بغداد ،
الكتاب المعروف :

١ - الفصول والغايات ، في تمجيد الله تعالى والعظّات . وهو
موضوع على حروف المعجم . وأراد بالغايات : القوافي ، لأن القافية
خاية البيت . وفيه قواف تبحى على نسق واحد ، وليست الملقبة

بالغايات . وهو الكتاب الذى افترى عليه بسببه . وقيل إنه عارض به السور والآيات تعدياً عليه وظلماً ، وإفكاً به أقدموا عليه وإثماً . فان الكتاب ليس من باب المعارضة فى شيء . ومقداره مائة كراسة .

٢ - وكتاب السادن^(١) وضعه فى ذكر غريب هذا الكتاب . وما فيه من اللغة ، ومقداره عشرون كراسة .

٣ - وكتاب إقليد الغايات^(٢) ، وهو مشتمل على تفسير اللغز ، ومقداره عشر كراريس .

٤ - ثم ألف الكتاب المعروف بالآيك والفصون ، وهو كتاب كبير ، ويعرف بكتاب الهمزة والردف ، بنى على إحدى عشرة حالة من الحالات ، الهمزة فى حال إفرادها وإضافتها ومثال ذلك : السماء بالرفع ، السماء بالنصب ، السماء بالخفض ، سماء : يتبع الهمزة التنوين ، سماءه : مرفوع مضاف

وبعد هذه الاستطرادات التى تجدها فى معجم الأدباء يقول ابن العديم : ومقدار هذا الكتاب ألف ومائتا كراسة ، وهذا

(١) فى كشف الظنون : « السادر » ، وفى معجم الأدباء : « الشاذن » ، وحقيقه أحمد تيمور باشا « السادن » ، وهذا ما رواه الذهبى أيضاً ،

(٢) الاقليد المفتاح

الكتاب قليل الوجود لكبره ، ولم أقف إلا على جزء واحد منه ،
وبعضه موقوف في خزانة كتب النظامية ببغداد ، وبالديار المصرية
منه نسخة كانت في خزائن المصريين ، صارت الى القاضى الفاضل
عبد الرحيم بن على البيسانى ، وانتقلت الى ولده القاضى الأشرف
بعده ، ثم صارت فى جملة كتب إلى خزانة الملك الصالح أيوب بن
محمد بن أبي أيوب ، وأظنها فى ستين مجلدا .

٥ - وكتاب فى تفسير الهمزة والردف ، جزء واحد .

٦ - والكتاب المعروف بتضمين الآى ، يتضمن العظات والحث
على تقوى الله تعالى ، ألف هذا الكتاب لبعض الأمراء ، وقد
سأله أن يؤلف كتاباً برسمه ، فعمل هذا الكتاب يعظه فيه ، ويحثه
على تقوى الله ، وأتى فيه عند انقضاء كل فصل بآية من القرآن ، وربما
اقتصر على بعض الآية ، أو جاء بآيتين وأكثر إذا كانت من
ذوات القصر ، كآيات « عبس » ونحوها ، فنه ما هو على حروف
المعجم ، وقبل الحرف المعتمد ألف ، مثل أن يقال فى الهمزة : بناء
ونساء وفى الباء : ثياب وعباب . وهكذا إلى آخر الحروف ، ويضمنه
فى آخر النص بآية . ومنه فصول على فاعلين ، مثل : باسطين وقاسطين .
وعلى فاعلون مثل حامدون وعابدون . ومنه ما على غير هذا الفن .

ومقدار هذا الكتاب أربعائة كراسة .

٧ — والكتاب المعروف بتاج الحرة . وهو فى عظام النساء خاصة وتختلف فصوله ، فمنها ما يحىء بمد حرفه الذى يثبت ثبات الروىاء التأنيث كقولك : شائى ، وتشائى ، وتسائى . وهابى ، وترابى . ومنه ما هو مبنى على الكاف نحو غلامك وكلامك . ومنها ما يحىء على تفعلين مثل : ترغبين وتذهبين ونحو ذلك . وأنه اعد كثيرة وهو كتاب لبعض الجليلات من النساء ، ويغاب على ظنى أنها طرود زوج ابن مرداس . ومقداره أربعائة كراسة .

٨ — والكتاب المعروف بسيف الخطبة ، يشتمل على خطب السنة ، فيه خطب للجمع والعيدىن والخسوف والكسوف ، والاستقاء وعقد النكاح ، وهو مؤلف على حروف العجم ، فيها خطب عمادها الهمزة وخطب بنيت على الباء ، وخطب على التاء ، وعلى الذال ، وعلى الزاء ، وعلى اللام والميم والنون ، وتركت الجيم^٥ والحاء وما جرى مجراها ، لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون سَجَسَجًا^(١) سهلا ، ومقداره أربعون كراسة .

ثم قال : وظفرت له بجزء فيه خطب لختم القرآن العزيز ، فيه عدة

(١) السجج والسهل بمعنى واحد

خطب لذلك ، مقداره خمس كراريس .

٩ - والكتاب المعروف بخطب الخليل يتكلم فيها على السنة
الخليل ، ويذكر على لسان كل فرس خطبة يحمد الله تعالى فيها ويعظمه
ويقول في أول كل خطبة : إن الله قادر على أن ينطق فرساً صورته
كذا وكذا فيقول : الحمد لله الذي خلقني كذا وكذا . ومقداره
عشر كراريس .

١٠ - والكتاب المعروف بخطبة الفصيح ، يذكر فيه الألفاظ
التي تروى عن ثعلب في كتاب الفصيح ضمن كلام فصيح منشور
في كل باب من أبواب الفصيح ، ومقداره خمس عشرة كراسة .
١١ - وكتاب شرح فيه ما جاء في هذا الكتاب من الغريب
يعرف بتفسير خطبة الفصيح ، لا أعلم مقداره ، ولم أقف عليه .
ونفهم من هذه الفقرات أن ابن العديم قد وقف على أكثر
كتب أبي العلاء ، وأن القسم الأعظم من كتبه المفقودة قد كانت
موجودة في عصر ابن العديم !

١٢ - وكتاب يعرف برسيل الراموز^(١) مقداره ثلاثون كراسة

١٣ - ومن الكتب الصغار كتاب يعرف بخماسة الراح في

ذم النحر خاصة على حروف العجم ، ومعنى هذا الاسم أن كل حرف من حروف المعجم ما خلا الألف يذكرفيه خمس سجعات مضمومات وخمساً مفتوحات ، وخمساً مكسورات ، وخمساً موقوفات . مقداره عشر كرايس .

١٤ - وكتاب يعرف بالمواظ الست ، سأل فيه بعض الوعاظ ، ومعنى هذا اللقب أن الفصل الأول منه في خطاب رجل والثاني في خطاب اثنين ، والثالث في خطاب جماعة ، والرابع في خطاب امرأة واحدة ، والخامس في خطاب امرأتين ، والسادس خطاب نسوة . ومقداره خمس عشرة كراية .

١٥ و١٦ - وكتاب يعرف بوقفة الواعظ ، وكتاب يعرف بدعاء ساعة ، وهما مختصران ، ولا أعلم مقدار حجمهما .

١٧ - وكتاب دعاء الأيام السبعة ، لا أعلم مقداره .

١٨ - وكتاب « حرز الخيل » لا أعلم مقداره .

١٩ - وجزء فيه حرز وتعويد ، لا أعلم مقداره .

٢٠ - وكتاب يعرف بسجع الحمايم ، تكلم فيه على أنه من حمايم أربع ، وكان بعض الرؤساء سألوه أن يصنف له تصنيفاً يذكروه فيه ، فأنشأ هذا الكتاب ، وجعل مايقوله على لسان الحمامة في العظة والحث

على الزهد ، ومقداره ثلاثون كراسة .

٢١ - وكتاب يعرف بعظات السور ، يتكلم فيه على لسان سور القرآن ، وتتظم كل سورة ممن قرأها بالشواذ ، ويتعرض للوجه الشاذ ، مقداره ست كراريس .

٢٢ - وكتاب يعرف بالجلي والجلي^(١) ، سأل فيه رجل من أكابر الحلبيين يقال له أبو الفتح عبد الله بن إسماعيل بن الجلي ، وهو رجل فاضل من أكابر الحلبيين وأعيانهم ، وأرباب النعمة منهم ، له مصنفات ورواية للأحاديث النبوية ، سمع منه الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي وأبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي جرادة الحلبي وغيرهما ، مقدار هذا الكتاب عشرون كراسة .

٢٣ - وكتاب يعرف « الصاهل والشاحج » يتكلم فيه على لسان فرس وبغل ، وهو كتاب حسن ، صنفه للأُمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك بن عبد الله الرومي ، مولى منجوتكين العريزي . وكان أبو شجاع هذا والى حلب من قبل المصريين في أيام الحُكم وبعض أيام الظاهر . وكان سبب تصديقه أنه رفع إلى فاتك أن حقًا يجب له

(١) اسم هذا الكتاب مختلف فيه .

على بعض أقرباء أبي العلاء وجب على أبي العلاء سؤاله فيه . مقداره
أربعون كراسة .

٢٤ - وكتاب لطيف في تفسير «الصاهل والشاحج» يعرف
بلسان الصاهل والشاحج . عمله أيضا لتعزيز الدولة المذكور ، ومقداره
ثمانى عشرة كراسة . وبعض الجهال يقول إنه عمله لأبى الدوام ثابت
ابن محمود بن نصر بن صالح . وكان يلقب عزيز الدولة وهو غير
صحيح . بل الذى عمله لأبى الدوام «اللامع العيزى» وسأتى ذكره

٢٥ - والكتاب المعروف بالقائف . يذكر فيه أمثالا على معنى
«كليلة ودمنة» عمله لتعزيز الدولة أبى شجاع المذكور أيضا . ألف
منه أربعة أجزاء ، ثم قطع تأليفه لموت الذى أمر بإنشائه . وهو
أبو شجاع فاتك . فإنه قتل بالمركز بقلعة حلب ، قتله مملوك له هندی
يقال له توذون سنة ثلاث عشرة وأربعمائة . ومقداره ستون كراسة .

٢٦ - وكتاب يعرف بشرف السيف . عمله لأمير الجيوش
نوشكين الذبرى والى دمشق وحلب . وكان بلغه عنه كلام جميل
ويوجه اليه بالسلام ، ويحفى المسئلة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل .

٢٧ - وكتاب يعرف بالسجع السلطانى . يشتمل على مخاطبات
الجنود والوزراء والولاة وغيرهم ، عمله لبعض الكتاب القليلى الصناعة

ليستعين به على الكتابة . مقداره ثمانون كراسة .

٢٨ — وكتاب يعرف بسجع الفقيه مقداره ثلاثون كراسة .

٢٩ — وكتاب يعرف بسجع المضطرين ، وهو كتاب لطيف

عمله لرجل مسافر يستعين به على شؤون دنياه . لا أعلم مقداره .

٣٠ — وكتاب «ديوان الرسائل» وهو ثلاثة أقسام . منها

طوال كرسالة الملائكة ورسالة الغفران : كتبها إلى علي بن منصور

الحبي المعروف بدوخلة ، جواباً على رسالة كتبها إليه يعتب عليه في

أنه بلغه عنه أنه ذكره فقال : هو الذي هجا أبا القاسم ابن المغربي .

فكتب إليه رسالة الغفران جواباً عنها . والرسالة السندية كتبها إلى

سند الدولة بن ثعبان الكتابي وإلى حلب من قبل المصريين في

معنى خراج على ملكة بمصرة النعمان . ورسالة العرض ونحو ذلك .

والثاني هو دون هذه في الطول ، مثل رسالة المنيع ورسالة

الإغريض ، والثالث رسائل قصار كنحو ما يجري به العالم في المكاتبات ،

ومقداره ثمانمائة كراسة .

٣١ — وكتاب يعرف بخادم الرسائل . فيه تفسير بعض ما جاء

في رسائله هذه من الغريب ، لا أعلم مقداره .

٣٢ — وكتاب تفسير رسالة الغفران ، لا أعلم مقداره .

٣٣ — وكتاب تفسير رسالة الأغريرض وهي التي كتبها إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ، وقد سير إليه كتابه الذي اختصر فيه إصلاح المنطق ، فكتب إليه برسالة الأغريرض يقرظه ويصف اختصاره للإصلاح ، ومقداره خمس كراريس .

٣٤ — وكتاب يعرف برسائل المعونة ، وهي ما كتب على السن قوم . لا أعلم مقداره .

٣٥ — والرسالة المعروفة بالحصنية ^(١) لا أعلم مقدارها .

٣٦ — ورسالة عملها على لسان ملك الموت عليه السلام ، لا أعلم مقدارها .

٣٧ — وكتاب لطيف يعرف بالسجعات العشر ، موضوع على كل حرف من حروف المعجم عشر سجعات في الوعظ ، لا أعلم مقداره .

٣٨ — ومن الأشعار التي نظمها : ديوانه المعروف « بسقط الزند » ^(٢) وهو ماقاله في أيام الصبا في أول عمره ، وهو من

(١) في معجم الادباء الرسالة الخفية

(٢) قال التبريزي : لما حضرت أبا العلاء ، قرأت عليه كثيراً من كتب اللغة وشيئا من تصانيفه ، فرأيت يكره أن يقرأ عليه شعره في صباه ، الملقب بسقط الزند ، وكان يغير الكلمة بعد الكلمة منه ، إذا قرأت عليه ، ويقول معتذراً عن تأنيبه وامتناعه من سماع هذا الديوان : مدحت نفسي فيه فلا أشتي أن أسمعه ، وكان يحنى على الاشتغال بغيره من كتبه

أحسن أشعاره ، وقد اعتنى به العلماء وشرحوه ، مقداره خمس عشرة كراسة ، تزيد أبياته المنظومة على ثلاثة آلاف بيت ، شرحه الخطيب التبريزي وشرحه ابن السيد البطليوسي وأحسن شرحه .

٣٩ - وكتاب يعرف بضوء السقط ، يشتمل على تفسير ما جاء في سقط الزند من الغريب ، مقداره عشرون كراسة ، وضع هذا الكتاب لتلميذه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني ، وكان رجلاً فاضلاً قصده إلى معرفة النعمان ولازمه مدة حياته يقرأ عليه بعد أن استعفى من ذلك ثم أجابه فقرأ عليه الكتب إلى أن مات ، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة ضوء السقط ، وأقام أبو عبد الله الأصبهاني بحلب ، وروى عن أبي العلاء كتباً متعددة من تصانيفه وهو الذي سأله أبو العلاء أن يشرح له سقط الزند . فشرحه ، ووسمه بضوء السقط ، وقد روى أبو عبد الله عنه وعن أبي صالح محمد بن المهذب المغربي وكان من الأعيان العلماء . روى عنه أبو الحسن علي ابن عبد الله بن أبي جرادة والشريف الزاهد سعيد بن عبد الله بن محاسن الهاشمي وأبو الفرج عبد القاهر النحوي المعروف بالوأواء وأبو المجد عبد الرحمن بن الخضر ، الحلبيون . وتوفي سنة ست وتسعين وأربعمائة . وقد أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن الحسن الدمشقي

بها عن أبي عبد الله محمد بن حمزة بن أبي الصقر ، قال :
 أنشدني الشريف الزاهد سعيد بن عبد الله بن محاسن الهاشمي
 أبو منصور بحلب ، قال :
 أنشدني أبو عبد الله محمد الأصبهاني قال : أنشدني أبو العلاء
 يعني مخاطبه :

يا أصبهاني وما غيره ماذا ترجى من دخول إلى
 لأمال عندي ترتجى نفعه اذهب حميداً وتفضل على

٤٠ - وكتاب يعرف بلزوم مالا يلزم وهو في المنظوم ، بني
 على حروف المعجم ، ويذكر فيه كل حرف سوى الألف بوجوهه
 الأربعة : وهي الضم والفتح والكسر والوقف منظوماً ، ومعنى
 لزوم مالا يلزم أن القافية يردد فيها حرف لو غير لم يكن مخللاً بالنظم ،
 ثم أورد عدة شواهد على ذلك . ومقدار هذا الكتاب أربعة
 أجزاء ، مائة وعشرون كراسة .

٤١ - وكتاب يتعلق بهذا الكتاب يقال له « زجر النابج »
 وقد ألعنا إليه .

٤٢ - وكتاب يتعلق بلزوم مالا يلزم أيضاً سماه « نجر الزجر »
 وقد ألعنا إليه أيضاً .

٤٣ - وكتاب يعرف براحة اللزوم ، شرح فيه مافى كتاب « لزوم مالا يلزم » من الغريب ، ومقداره مائة كراسة .

وقد تضمنت هذه الكتب ردوداً صريحة من أبى العلاء على خصومه الذين اتهموه بالكفر ، ولم يتورعوا عن تحريف كلامه .

٤٤ - وكتاب يعرف بجامع الأوزان فيه شعر منظوم على معنى الغز ، يعم به الأوزان الخمسة عشر التى ذكرها الخليل بجميع ضروبها ، ويذكر قوافى كل ضرب من ذلك . ثم أورد عدة أمثلة على ذلك . يقول ابن العديم : إن مقدار هذا الكتاب ستون كراسة وعدد أبياته نحو من تسعة آلاف .

٤٥ - كتاب « استغفر واستغفرى » فى العظة والزهد والاستغفار ، أول كل أبيات فيه : استغفر الله ، ومقداره مائة وعشرون كراسة ، يشتمل على نحو من عشرة آلاف بيت .

٤٦ - وكتاب « ملقى السبيل » وهو كتاب وعظ يشتمل على نثر ونظم على حروف المعجم ، على كل قافية فصل نثر وأبيات شعر ، مقداره كراستان .

٤٧ - وما عمله فى النحو والغريب ككتاب « الحميم النافع »

وهو مختصر فى النحو، مقداره خمس كرايس .

٤٨ - وكتاب يتصل بالحقير النافع يعرف بالظل الطاهرى ؛ عمله
لرجل من أهل حلب يكنى أبا طاهر ؛ وهو أبو طاهر المسلم بن على
ابن تغلب الملقب مؤتمن الدولة ، وكان من أكابر الحلبيين وعلمائهم ،
وكان وجيهاً عند معز الدولة ثمال بن صالح ، وسيره رسولا إلى مصر
الى المستنصر سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، فأت بها وأودع تركته
عند المؤيد فى الدين ليوصلها الى ورثته ، وهذا الذى غناه أبو محمد
الخفاجى بقوله فى قصيدته الرائية :

إن فى جانب المقطم مهجو راءً ومن أجله تزار القبور
وبعد أن أورد مقطوعة من مرثاة ثانية لأبى محمد
الخفاجى قال :

وهذا الكتاب قريب من الأول فى الحجم ، وقد يخلط
بالكتاب الأول ويجعل كتابا واحدا .

٤٩ - وكتاب يعرف بالمختصر الفتى ، يتصل بمختصر محمد بن
سعدان ، عمله لولد كاتبه أبى الفتح محمد ابن الشيخ أبى الحسن على بن
أبى هاشم .

٥٠ - وكتاب يعرف بعون الجمل ، عمله لأبى الفتح محمد بن على

ابن أبي هاشم، شرح فيه شيئاً من كتاب الجمل لا أعلم مقدارها .
وهو آخر كتاب أملاه وكان أبوه يتولى إثبات ما ألفه من هذه الكتب
فألزمه حقوقاً جمّة وأيادى بيضا فوضع هذين الكتابين لابنه .

٥١ - وكتاب يعرف بتعليق الخلس ، مما يتصل بكتاب
أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجالي المعروف بالجمل . لا أعلم
مقداره .

٥٢ - وكتاب يتعلق بهذا الكتاب أيضاً . يعرف بأسعاف
الصديق . لا أعلم مقداره .

٥٣ - وكتاب يتعلق بالكافي الذي ألفه أبو جعفر أحمد بن
محمد النحاس ، لقبه : قاضى الحق ، لا أعلم مقداره .

٥٤ - وإملاء فى النحو يتصل بالكتاب المعروف بالعضدى ،
لقبه : ظهير العضدى ، لا أعلم مقداره .

٥٥ - وكتاب شرح فيه كتاب سيبويه ، لم يتمه ، مقداره
خمسون كراسة .

٥٦ - وكتاب تفسير أمثلة سيبويه وغريبها ، عرّيت من الكتاب ،
لا أعلم مقداره وهو فى مجلد .

٥٧ - وكتاب شرح فيه خطبة أدب الكاتب ، عمله لأبي الرضى

سالم بن الحسن بن علي الحلبي ، وهو ابن اخت الوزير أبي نصر محمد ابن النحاس الحلبي ، وكان من الفضلاء الأدباء الشعراء ، لا أعلم مقداره .

٥٨ - وكتاب في العروض ، يعرف بثقال النظم . لا أعرف مقداره . وهو في مجلد

٥٩ - وكتاب في القوافي . مجلد

٦٠ - وكتاب الالامع العريزي في تفسير شعر المتنبي . ويقال الثابت العريزي . عمله للأمر عزيز الدولة أبي الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس بن إدريس بن نصر بن حميد الكلابي . وبعض الناس يغلط ويقول إنه وضعه لعزيز الدولة أبي شجاع فأنك العريزي . وليس الأمر كذلك . ومقداره مائة وعشرون كراسة .
٦١ - وكتاب في معاني شعر المتنبي . مقداره ست كراريس .
٦٢ - وكتاب يعرف بذكرى حبيب . في تفسير شعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي . مقداره ستون كراسة .

٦٤ - وكتاب يتعلق بشعر أبي عباد البحتري يعرف بعبث الوليد . وكان سبب وضعه أن بعض الرؤساء ، وهو أبو اليمن المسلم ابن الحسن بن غياث الكاتب الحلبي النصراني ، وكان صاحب

الديوان بجلب - أنفذ اليه نسخة من شعر أبي عبادة البحرى ليقابل له بها فأثبت ماجرى من الغلط ليعرض ذلك عليه . وبعض الغلط من الناسخ ، وبعضه من البحرى . ومقداره عشرون كراسة .

٦٤ - وكتاب يعرف بالرياشى المصطنعى . فى شرح مواضع من الحماسة الرياشية ، عمله لرجل من الأمراء يلقب مصطنع الدولة . وهو أبو غالب كليب بن على ، فسر فيه ما لم يفسره أبو رياش . وكان قد أنفذ اليه نسخة من الحماسة ، وسأله أن يخرج فى حواشيها ما لم يفسره أبو رياش . فجعله كتابا مفردا لخوفه من أن تضيق الحواشى عنه . مقداره أربعون كراسة .

٦٥ - وكتاب جمع فيه فضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ، لا أعلم مقداره .

٦٦ - وكتاب فيه أمالى من حديث رسول الله ﷺ عن شيوخه . وهى سبعة أجزاء . سبع كراريس .

٦٧ - ومن الأمالى التى لم تتم . ولم يفرد لها اسما ، ما مقداره مائة كراسة ، منها : تفسير شواهد الجهرة .

وجمع شعر أخيه أبى الهيثم عبد الواحد لولده زيد . وجمع شعر

الأمير أبي الفتح بن أبي حصينة السلمى . وشرح مواضع منه فى
ثلاث مجلدات .

فذلك جميعه سبع وستون مصنفًا .

انتهى مذكره ابن العديم من كتب أبى العلاء ، ويخيل
إلى أن القارئ قد مل من تلاوة هذا الثبت الطويل ، ولا أنكر ،
فقد مللت أنا أيضا فى نقله ، ولكن أين هذا مما يجب أن يتحلى به
محبو العلم من الصبر والجلد ؟

لقد أمضى أبو العلاء خمسين سنة من عمره وهو يملى هذا الحشد
من الرسائل والكتب فى شتى صنوف العلم والأدب يعالج فيها
مشكلات الحياة والمجتمع . أفلا تقف لحظات قد لا تتجاوز الدقائق
الخمس فى تلاوة عناوين هذه الثروة الضخمة التى تركها أبو العلاء
على ما فيها من فوائد لمن يريد أن يعرف كل شاردة عن حياة هذا
الفيلسوف العربى الفذ ؟

وعلى كل ، فنحن لم نورد هذا الثبت الطويل إلا لهذه
الاستطرادات التى أوردتها ابن العديم عن الكثير من الكتب مما
لأنجده عند ياقوت ، وقد عرفنا من هذا الفصل أن المؤرخ كمال الدين

قد قرأ أكثر كتبه ، وأنه لم ينبر للدفاع عن أبي العلاء إلا بعد أن
تحقق له مدى عمله وإيمانه وصحة معتقده ، وأن خصومه لم يرموه
بسوء المعتقد إلا لحسد تأكل ناره صدورهم . وهذا الذي جعله
يسىء الظن بالبشر ويتمنى لو أن الإنسان لم يوجد لتنجو البشرية
من فسادها وشرورها وخسها طبعه ، فقال :

يا ليت آدم كان طلق أمهم أو كان حرماً عليها إظهار
ولدتهم في غير طهر عاركا فلذاك تفقد فيهم الأظهار

سفره إلى بغداد

بعد هذا الفصل الطويل الذي عقده عن مؤلفاته ، عقد فصلا ذكر فيه رحلته إلى بغداد وعودته إلى مورة النعمان ، وانقطاعه في منزله عن الناس وتسمية نفسه رهين المحبين ، وهو فصل توسع فيه وقص بعض قصص طريقة من حياة أبي العلاء .

قال ابن العديم :

رحل إلى بغداد لطلب العلم ، والاستكثار منه ، والاطلاع على الكتب ببغداد ، ولم ير حل لطلب دنيا ولا رفق . وقد ذكر ذلك في قصيدته التي قرأها على شيخنا أبي علي الحسن بن عمرو الموصلى بحلب .

قال : أنشدنا الخطيب أبو الفضل عبد الله بن أحمد الموصلى

قال : أخبرنا الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي إجازة ، قال :

أنشدنا أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان لنفسه وكتبها من بغداد إلى أهله ، يريد بالمعرة :

أخواننا بين الفرات وجلّق	يد الله لا خبرتكم بمحال
أنبئكم أنى على العهد سالم	ووجهي لما يتبدل بسؤال
وأنى تيممت العراق لغير ما	تيممه غيلان عند بلال

فأصبحت محسوداً بفضلٍ وحده على بعد أنصاري وقلة مالى
 وغيلان هو ذو الرمة قصد بلال بن أبي بردة بن أبي موسى ،
 يريد أنه لم يستجد أحداً .
 وكان ترك والدته بمعة النعمان ، ولما عاد إلى المعرة وجدها قد ماتت .

* * *

أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي ، عن أبي جعفر محمد ابن
 مؤيد بن حواري ، أخبرني جدى أبو القيثان قال :
 ولزم - يعنى أبا العلاء - منزله عند منصرفه من بغداد ، منذ سنة
 أربعائة ، وسمى نفسه « رهن الحبسين » للزومه منزله وذهاب عينيه .

* * *

وقرأت بخط أبي محمد الحسن بن الفرج البحتري الأديب في
 آخر سقط الزند بروايته عن الخطيب التبريزي ، وخط التبريزي
 عليه : ورحل - يعنى أبا العلاء - إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ،
 ودخلها سنة تسع وتسعين ، وأقام بها سنة وستة أشهر ، ولزم منزله
 عند منصرفه من بغداد منذ سنة أربعائة . وسمى نفسه « رهن
 الحبسين » لهذا ، ولذهاب عينيه .

* * *

أُنْبَأَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّجَّارِ . قَالَ كَتَبَ إِلَيْنَا الْوَزِيرُ أَبُو غَالِبٍ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ الْحَصِينِ ، قَالَ : وَرَحَلَ إِلَى بَغْدَادٍ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَتَسْعِينَ فَدَخَلَهَا فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَتَسْعِينَ وَأَقَامَ بِهَا سَنَةً وَنِصْفًا ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَعْرَةِ فِي سَنَةِ أَرْبَعِمِائَةٍ وَلَزِمَ مَنْزِلَهُ بِهَا ، وَأَمْسَكَ عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ خَمْسًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً .

* * *

سَمِعْتُ وَالِدِي أَبَا الْحَسَنِ أَحْمَدَ بْنَ هَبَةَ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَرَادَةَ فِيمَا يَأْتِرُهُ عَنْ أَسْلَافِهِ قَالَ : رَحَلَ أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرِيُّ مِنَ الْمَعْرَةِ إِلَى بَغْدَادٍ وَاتَّفَقَ يَوْمَ وَصُولِهِ إِلَيْهَا مَوْتُ الشَّرِيفِ الطَّاهِرِ . يَعْنِي أَبَا أَحْمَدَ الْحُسَيْنِ بْنِ .. بْنِ الْحِمْوِّ وَهُوَ وَالِدُ الشَّرِيفَيْنِ الرِّضِيِّ وَالْمُرْتَضَى . فَدَخَلَ أَبُو الْعَلَاءِ لَتَعْرِيزَتِهِ ، وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ ، وَالْمَجْلِسُ غَاصٌّ بِأَهْلِهِ . فَتَخَطَّى بَعْضُ النَّاسِ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ وَلَمْ يَعْرِفْهُ : إِلَى أَيْنَ يَا كَلْبُ ؟ فَقَالَ : الْكَلْبُ مِنْ لَا يَعْرِفُ لِلْكَلْبِ كَذَا وَكَذَا اسْمًا ^(١) .

ثُمَّ جَلَسَ فِي أُخْرِيَّاتِ الْمَجْلِسِ ، إِلَى أَنْ قَامَ الشُّعْرَاءُ وَأَنْشَدُوا . فَقَامَ أَبُو الْعَلَاءِ وَأَنْشَدَ قَصِيدَتَهُ الْفَائِيَّةَ الَّتِي أَوْهَى :

(١) يورد ياقوت هذه القصة ثم يختم العبارة بهذا النص : قَالَ أَبُو الْعَلَاءِ : الْكَلْبُ مِنْ لَا يَعْرِفُ لِلْكَلْبِ سَبِينَ اسْمًا .

أودى فليت الحادثات كفاف

مال المسيف وعنبر المستاف

يرثي بها الشريف المذكور . فلما سمعه الرضى والمرضى قاما إليه ، ورفعا مجلسه . وقالاه : لعلك أبو العلاء المعرى . قال : نعم . فأكرماه واحترماه ، ثم إنه بعد ذلك طلب أن تعرض عليه الكتب التى فى خزائن بغداد فأدخل إليها . وجعل لا يقرأ عليه كتاب إلا حفظ جميع ما يقرأ عليه .

* * *

سير إلى قاضى المعرة شهاب الدين أبو العالى أحمد بن مدرك ابن سليمان جزءاً فيه أخبار سلفه من بنى سليمان ، وكتبه لى بخطه قال : وهنا قص قصة طويلة عن تاريخ سفره ومن لقي فى بغداد من العلماء ثم أورد قصيدة من أخيه أبى الهيثم يستعطفه على مخالفته بالشام ويسأله العودة يقول فى مطلعها :

يارب قد جنح الوميض وغارا

فاسق المواطر زينباً ونوارا

أختين صاغهما الشباب وعصره

ماء يصفقه النعيم ونارا

وهى طويلة يختمها بقوله :

أبأ العلاء نداء عبد أدركت

منه النوى لما نأت بك ثارا

حاشاك أن تبدى الجفاء خللة

وتعيد أقران الوفاء قصارا

أدرك بادراك المعرة مهجة

تفنى عليك مخافة وحادرا

*

أغرّت نواك بها الحمام مناجزا

*

ونجا بها حسن الرجاء مرارا

بلغت بك الهمم المراد فأياست

منك الحسود ولم تنط بك عارا

فأقمت فى الزوراء ، ثم غدت فى

أفق المفاخر كوكبا سيارا

بدء عزلة واستفالة باللفظ

قال ابن العديم :

ولما قدم من بغداد ، عزم على العزلة ، والاتقصاب من العالم

فكتب إلى أهل المعرة :

«بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب الى السكن المقيم بالمعرة ،

شملهم الله بالسعادة ، من أحمد بن عبدالله بن سليمان ، خص به من

عرفه وداناه ، سلم الله الجماعة ولا أسلمها ، ولم شعها ولا آلمها . أما

الآن فهذه مناجاتي بعد منصرفي عن العراق : مجتمع أهل الجدل ،

وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فاتقست ، وودعت

الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر أشطره ، وجربت خيره وشره ،

فوجدت أوفق ما أصنعه في أيام الحياة ، عزلة تجعلني من الناس كبارح

الآروى من سانح النعام . وما ألوت نصيحة لنفسى ، ولا قصرت

في اجتذاب المنفعة الى حيزى ، فأجمعت على ذلك ، واستخرت الله

فيه بعد جلائه على نفر يوثق بحصائلهم ، فكلهم رآه حزما وعدّه إذا

تم رشدًا . وهو أمر أسرى عليه بليل قضى برقة ، وخبث به النعامة ،

ليس بنتيج الساعة ، ولا ريب الشهر والسنة ، ولكنه غذى الحقب

المتقادمة ، وسليل الفكر الطويل . وبادرت إعلامهم ذلك مخافة أن يتفضل منهم متفضل بالنهوض الى المنزل الجارية عادتي بسكناء ، ليلقاني فيه ، فيتعذر ذلك عليه ، فأكون قد جمعت بين سمجين : سوء الأدب وسوء القطيعة ، ورب ملوم لا ذنب له ، والمثل السائر : « خل امرءاً وما اختار » وما سمحت القرون بالإياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة :

- ١ - نبذة كنبذة فتيق النجوم .
 - ٢ - وانقضاًً من العالم كانهضاب القائبة من القوب .
 - ٣ - وثباتاً في البلد إن جلا أهله من خوف الروم .
- فإن أبي من يشفق على ، أويظهر الشفق ، إلا النفرة مع الدواد كانت نفرة الأعفر أو الأدماء .
- وأحلف ماسافرت أستكثر من النشب . ولا أتكثر بلقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن باقامتي فيه . والجاهل مغالب القدر . فلهيت عما استأثر به الزمان . والله يجعلهم أحلاس الاوطان ، لا أحلاس الخيل والركاب ، ويسبغ عليهم النعمة سبوغ القمراء الطلقة على الظبي الغرير ، ويحسن جزاء البغداديين ، فقد وصفوني بما لا أستحقه ، وشهدوا لي

بالفضيلة على غير علم . وعرضوا على أموالهم عرض الجدة ، فصادفوني
غير جذل بالصناعات ، ولا هش إلى معروف الأقسام ، ورحلت وهم
لرحيلي كارهون . وحسبى الله وعليه يتوكل المتوكلون »



قال ابن العديم :

وإنما قيل له « رهن المحبين » للزومه منزله وكف بصره
فأقام مدة طويلة في منزله مختمياً لا يدخل عليه أحد . ثم إن الناس
تسببوا إليه حتى دخلوا عليه . فكتب الشيخ أبو صالح محمد بن المهذب
إلى أخيه أبي الهيثم قصيدة طويلة يمدح فيها أبا العلاء ويذكر فضله
وما تركه من أثر في بغداد وفي قلوب محبيه . ومما قاله :

أبا الهيثم اسمع ما أقول فأنما	تعين على مارمت خير معان
قريضي هجاء إن حرمت مديحه	لأروع وضاح الجبين هجان
أطل على بغداد كالغيث جاءها	به سعد نجم في أجل أوان
نضائها ثياب المجد وهى لباسها	وبدلها من شدة بليان
فيا طيب بغداد وقد أرجت به	على بعدها الأطراف من أرجان

ومنها :

فكيف حاملاً منى إليه رسالة تبين إليه في هضاب أبان

فان قال أخشى من فلان تشبهاً فقل ما فلان عندنا كفلان
وقائل هذا الشعر من أكابر رجالات المعرة كان كما يقول
المؤرخون : كبير القدر ، جليل الأمر ، فاضلاً عالماً زاهداً شاعراً ،
حدث بالكثير عن أبي العلاء المعرى .

وهكذا فلا يترك ابن العديم فرصة تمر إلا ويورد لنا بطريق
غير مباشر ، بعض النصوص التي ترينا من هم الذين أحبوا أبا العلاء
من معاصريه . وكأنه يرد على خصومه بقوله :

أيتقدم إلى مدحه العلماء والزهاد ، إذا كان ينطوى قلبه على
الكفر والإلحاد ؟

ألا ساء ما تعتقدون . . . !

ذكاؤه وحفظه

بعد أن استوفى ابن العديم الكلام عن رحلة المعرى إلى بغداد وعودته إلى معرة النعمان وانقطاعه في منزله عن الناس ، عقد فصلاً عن ذكائه وفطنته وسرعة حفظه والمعيته وتوقد خاطره وبصيرته . ونحن نورد هذا الفصل على ما فيه من غرائب ، هي أقرب لأن ترضى أهواء العوام من أن ترضى أفهام الخواص . على أن هذا لا يجرد أبا العلاء من توقد الذهن وسرعة الفهم .

قال ابن العديم :

« أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي القرطبي ، أخبرنا أبو جعفر محمد بن مؤيد بن حواري كتابة ، قال : أخبرني جدي أبو اليقظان قال : كان مولد الشيخ أبي العلاء بن سليمان بمعرة النعمان وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة أو اثنتي عشرة سنة رحمه الله . وقرأت بخط أبي محمد الحسن القاسم البحتري في آخر سقط الزند ، وقد قرأه علي التبريزي وعليه خطه ، وذكر أبا العلاء فقال : وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة أو اثنتي عشرة سنة . وسمعت والدي يقول : فيما يؤثره عن أسلافه : كان أبو العلاء

على غاية من الذكاء والحفظ . وقيل له : بم بلغت هذه الرتبة في العلم ؟
فقال : ما سمعت شيئا إلا حفظته ، وما حفظت شيئا فنسيته .

ثم روى ابن العديم أكثر من قصة واحدة مما ترويه كتب
الأدب عن توقد ذهنه وسرعة ذاكرته مما يدخل في باب التهويل
أكثر مما يقره العقل والمنطق ، كقصة تلميذه أبي زكريا التبريزي مع
مواطنه اللذين تحدثا بالفارسية ، فأعاد أبو العلاء الكلام دون أن يفهم
المعنى ، وقصة التاجرين اللذين أضاع أحدهما ورقة الحساب فاستطاع
أبو العلاء ، بعد عدة أيام ، أن يسرد هذه الأرقام دون زيادة أو نقص !
وقد روى ابن العديم هاتين القصتين وروى غيرها مائتين لهما ،
ولا بأس أن نسمع إليه يقص بعض القصص التي لم ترد في الكتب
التي عرضت إلى سيرة أبي العلاء .

قال ابن العديم :

وأخبرني قاضي معرة النعمان شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن
مدرّك بن سليمان فيما تأثره عن المعريين أن الشيخ أبا العلاء لما دخل
بغداد لم يعرض عليه شيء من الكتب إلا وحفظها ، وأخبرهم أنه

يحفظ كل شيء سمعه . وطلبوا كتاباً لا يعرفه ليمتحنوه به فأحضروا دستور الخراج الذى فى الديوان ، وجعلوا يوردون ذلك عليه مياومة وهو يسمع الى أن فرغو من ذلك ، فابتدأ أبو العلاء وسرد عليهم كل ما أوردوه عليه .

« . »

وقفت على سيرة بعض الرؤساء بحلب ، وضعها الشريف أبو على المظفر بن الفضل بن يحيى العلوى الأسحاقى الحسينى نزيل بغداد ، وهو من ولد الشريف أبى إبراهيم العلوى الخرانى وأصله من حلب وكان أبوه حاجب الباب ببغداد ، ورد هذا الشريف علينا فى حلب - زائراً أهلها بها ، فذكر فيه ، قال : حدثنى والدى رضى الله عنه وأرضاه ، يرفعه إلى ابن منقذ قال : كان بأنطاكية خزانة كتب ، وكان الخازن بها رجلاً علواً . فجلست يوماً إليه . فقال . قد خبأت لك خبيثة ظريفة لم يسمع بمثلاً فى تاريخ ، ولا كتاب منسوخ . قلت : وما هى ؟ قال ، صبي دون البلوغ ، ضريع ، يتردد إلى وقد حفظته فى أيام قلائل عدة كتب ، وذلك لأننى قرأت عليه الكراسى والكراسين مرة واحدة فلا يستعيد إلا ما يشك فيه ، ثم يتلو على ما قد سمعه كأنه قد كان محفوظه ، قلت : لعله يكون يحفظ ذلك . قال : سبحان الله !

كل كتاب فى الدنيا محفوظ له ، وإن كان ذلك كذلك فهو أعظم !
ثم حضر المشار اليه وهو صبي ، دميم الخلقه ، مجذور الوجه ، على
عينيه بياض من أثر الجدري ، كأنه ينظر باحدى عينيه قليلا وهو يتوقد
ذكاء ، يتوده رجل طوال من الرجال ، أحسبه يقترب من نسبه ، فقال
له الخازن : يا ولدى هذا رجل شريف القدر ، وقد وضعتك عنه (١)
وهو يحب اليوم أن تحفظ ما يختاره لك فقال : سمعاً وطاعة ، فليختر
ما يريد . قال ابن منقذ : فاخترت شيئاً ، وقرأته على الصبي ، وهو
يموج ويستزید ، فاذا مر به شىء يحتاج إلى تقريره فى خاطره يقول :
أعد هذا ، فأورده عليه مرة واحدة حتى انتهت إلى مايزيد على
كراسة ، ثم قلت له : يقنع هذا من قبل نفسى . قال : أجل حرسك الله ،
قلت كذا وكذا ، وتلا على ما أملت عليه وأنا أعارضه بالكتاب
حرفاً حرفاً حتى انتهى إلى حيث وقفت عليه ، فكاد عقلى يذهب
لما رأيت منه : وعلمت أن ليس فى العالم من يقدر على ذلك ، إلا أن
يشاء الله ، وسألت : فقيل لى : هذا أبو العلاء التنوخى من بيت العلم
والقضاء والثروة والغناء .

(١) هكذا فى الأصل ، ولعله : وصفتك له

وهذه القصة ترينا لو نأمن المملكات الواعية التي تحفظ النصوص الأدبية دون أن تعاد عليها مرة ومرة ، على أن ابن العديم ينقض هذه القصة من حيث مكانها وزمانها لا من حيث هيكلها ، فيقف مناقشاً بطبيعة المؤرخ المتزن الذي لا يريد أن ينقل أحداث التاريخ دون فهم ووعى ، فيعلق على هذه القصة بقوله :

«وهذه الحكاية فيها من الوهم ما لا يخفى، وذلك أنه قال : كان أنطاكية خزانة كتب إلى آخر ما ذكره، وهذا شيء لا يصح، فإن أنطاكية أخذها الروم من أيدي المسلمين في ذى الحجة من سنة ٣٥٨ هـ وولد أبو العلاء بعد ذلك بأربع سنين وثلاثة أشهر في ربيع الأول من ٣٦٣ هـ وبقيت أنطاكية في أيدي الروم إلى أن فتحها سليمان بن قطلمش في سنة ٤٧٧ هـ وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك في سنة ٤٤٩ هـ وأخلاها الروم من المسلمين حين استولوا عليها ، فلا يتصور أن يكون بها خزانة كتب وخرن ، وتقصد للاشتغال بالعلم . ويحتمل عندي أن يكون هذا بكفر طاب ، فقد كانت كفر طاب مشحونة بأهل العلم ، وكان بها من يقرأ الأدب ويشغل به قبل أن يهجمها الفرنج سنة ٤٩٢ هـ وكانت لأبي المتوج مقلد بن نصر بن منقذ في أيام أبي العلاء ، فلعله تصحف كفر طاب بأنطاكية

وتصحيفها بها غير مستبعد . فإن كان كذلك فابن منقذ ، الحاكي لهذه الحكاية ، هو أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ ، وأبوه نصر ، وكفر طاب قريبة من معرة النعمان ، ويحتمل أن ذلك كان بحلب .. وله بها دار ومنزل ، وكان بها خزانة كتب في الشرفية التي بجامع حلب في موضع خزانة الكتب اليوم ، واتفقت فتنة في بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعية ونهبت خزانة الكتب ، وكان ذلك في زمن أبي العلاء ، ولم يبق في خزانة الكتب إلا القليل ، وجدد الكتب فيها بعد ذلك الوزير أبو النجم هبة الله بن بدیع وزير الملك رضوان ، ثم وقف غيره كتباً أخرى بها .

* * *

وقد دون ابن العديم في هذا الفصل كل ما قرأه وسمعه ، وما زال يتنقل من قصة إلى قصة ومن فائدة إلى أخرى ، إلى أن قال : « أخبرنا قاضى المعرة شهاب الدين أبو المعالى أحمد بن مدرك ابن سليمان قال : سمعت جماعة من أهلنا يقولون : كان أبو العلاء متوقداً لخطر ، على غاية من الذكاء من صغره ، وتحدث الناس عنه بذلك وهو إذ ذاك صبى صغير يلعب مع الصبيان ، فكان الناس يأتون إليه ليشاهدوا منه ذلك ، فخرج جماعة من أهل حلب إلى ناحية

معرفة النعمان وقصدوا أن يشاهدوا أبا العلاء وينظروا ما يحكى عنه من
الفضيلة والذكاء ، فوصلوا إلى المعرة وسألوا عنه فقيل لهم : هو يلعب
مع الصبيان ، فجاءوا إليه وساءوا عليه فرد عليهم السلام ، فقيل له :
إن هؤلاء جماعة من أكابر حلب جاؤوا لينظروك ويمتحنوك ، فقال
لهم : هل لكم في المقابلة بالشعر ؟ فقالوا : نعم ، فجعل كل واحد منهم
يفشد بيتاً على قافيته ، حتى فرغ محفوظهم بأجمعهم وقهرهم .
فقال لهم : أعجزتم أن يعمل كل واحد منكم بيتاً عند الحاجة
إليه ، على القافية التي يريد ؟

فقالوا له : فافعل أنت ذلك .

قال : فجعل كما أنشده واحد منهم بيتاً أجابه من نظمه على قافيته
حتى قطعهم كلهم ، فعجبوا منه وانصرفوا . . . »

* * *

وعن قاضى المعرة أيضاً قال : أخبرنى جماعة من سلفنا ، أن
بعض أمراء حلب قيل له : إن اللغة التى ينقلها أبو العلاء هى من
الجمهرة ، وعنده من الجمهرة نسخة ليس فى الدنيا مثلاً ، وأشاروا
عليه بطلبها منه قصداً لأذاه ، فسير أمير حلب رسولا إلى أبى العلاء
يطلبها منه ، فأجابه بالسمع والطاعة ، وقال : تقيم عندنا أياماً حتى

تقضى شغلك . ثم أمر من يقرأ عليه الجهره ، فقرئت عليه حتى فرغوا من قراءتها ، ثم دفعها إلى الرسول وقال له : ما قصدت بتعويقتك إلا أن أعيدها على خاطري خوفاً من أن يكون قد شذ منها شيء عن خاطري . فعاد الرسول وأخبر أمير حلب بذلك فقال : من يكون هذا حاه لا يجوز أن يؤخذ منه هذا الكتاب ! وأمر برده إليه .

ومع طول هذا الفصل فانه يتضمن أمالي أدبية طريفة لا بأس من نقل بعضها ، قال ابن العديم :

« وذكّر القاضي الرشيد أبو الحسين أحمد بن علي بن إبراهيم ابن الزبير المصرى فى كتاب جنان الجنان ، قال : حدثنى القاضي أبو عبد الله محمد بن سند القنصرى بمصر قال : حدثنى أبى قال : بقنا عند أبى العلاء المعرى فى الوقت الذى كان يملئ فيه شعره المعروف : « لزوم مالا يلزم » فأملئ فى ليلة واحدة ألفى بيت ، كان يسكت زماناً ثم يلى قريباً من خمسمائة بيت ، ثم يعود إلى الفكرة والعمل ، إلى أن كملت العدة المذكورة

وحكى أن أبا محمد الخفاجى الحلبي لما دخل على أبى العلاء سلم عليه ولم يكن يعرفه أبو العلاء ، فرد عليه السلام ، وقال : هذا رجل طوال ،

ثم سأله عن صناعته ، فقال : أقرأ القرآن ، فقال : اقرأ على شيئاً منه ،
فقرأ عليه عشرّاً فقال له : أنت أبو محمد الخفاجي الحلبي ؟ فقال : نعم ،
فسئل عن ذلك فقال : أما طوله فعرفته بالسلام ، وأما كونه أبا محمد
فعرفته بصحة قراءته وأدائه بنغمة أهل حلب ، فإني سمعت بحديثه »

* * *

« سمعت والدي رحمه الله يقول : بلغني أن أبا العلاء بن سليمان كان
يعجبه قصيدة التهامي التي يرثي بها ولده وأولها :

حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
قال : فكان لا يرد عليه أحد من أهل العلم إلا ويستنشده إياها
لا عجايبه به بها ، فقدم التهامي معرة النعمان ، ودخل على أبي العلاء
فاستنشده إياها فقال له : أنت التهامي ؟

قال : نعم ، وكيف عرفتني ؟
فقال : لأنني سمعتها منك ومن غيرك ، فأدركت من حالك أنك
تنشدها من قلب قريح ، فعلمت أنك قائلها .
هذا معنى ما ذكره لي والدي رحمه الله .

حرمة ومطامير

والفصول الأخيرة من كتابه الانصاف والتحرى، في دفع الظلم والتجرى عن أبي العلاء المعرى - الفصول التي وصلتنا خصها ابن العديم بذكر حرمة عند الملوك والخلفاء والأمراء والوزراء، وعن اضطلاعهم بالعلم والأدب، ومعرفة بالغة ولسان العرب، ثم عقد فصلاً ذكر فيه كرم أبي العلاء وجوده، على قلة ماله ونزارة وجوده، واختتمت المخطوطة بفصل ذكر فيه قناعة نفسه وشرفها وعفتها عن أخذ صلوات الناس وظلفها. وقبل أن نلجأ إلى الفصول المفقودة من الكتاب وهي الفصول التي خصها بالدفاع عن أبي العلاء نمر مروراً سريعاً بهذه الفصول الأربعة التي عقدها ابن العديم لنكمل هذه السيرة بقلم قاضى القضاة، وهي قصة شائقة لما تميزت به حياة فيلسوف المعرة وما مر بها من أحداث جديرة بترديدها وتلاوتها.

قال ابن العديم يصف حرمة أبي العلاء عند الملوك والخلفاء ومر كره السامق عند الأمراء والوزراء:

«وما زالت حرمة أبي العلاء في علاء، وبحر فضله مورداً للوزراء والأمراء. وما علمت أن وزيراً مذكوراً، وفاضلاً مشهوراً، مر بمعرة

النعمان. في ذلك العصر والزمان ، إلا وقصده واستفاد منه ، أو طلب شيئاً من تصنيفه أو كتب عنه . وسيأتى في أثناء فصول هذا التصنيف ، ما يدل على علو مرتبته وقدره المنيف . وقد كان المستنصر المتولى على مصر أحد العبيدين الذين ادعوا الخلافة ، بذل لأبي العلاء ما يبسط المال ، بعمرة النعمان من الحلال ، فلم يقبل منه شيئاً . وسندكر ذلك في موضعه .

وكذلك داعى دعائهم بمصر أبو نصر هبة الله بن موسى المؤيد في الدين ، حين بلغه أن الذى يدخل لأبي العلاء في السنة من ملكه نيف وعشرون ديناراً كتب الى تاج لأمرأه ثال بن صالح ، وكان إذ ذاك نائباً عن العبيدين بحلب وعمرة النعمان ، بأن يجرى ما تدعو اليه حاجته بجميع مهامه وأسبابه ، وما يحتاج اليه مما هو ببلغة له من ألد الطعام ، وأن يضاعف حرمة ويرفع منزلته عند الخاص والعام ، فامتنع من قبول ذلك ، وسندكره أيضاً في موضعه عند الحاجة إلى ذكره .

وكان الأمير عزيز الدولة أبو شعجاع فاتك بن عبد الله أمير حلب يطلب منه أن يصنف له تصانيف ، ويحترمه ويرفع رتبته ، ويقبل شفاعته ، وقدم اليه إلى عمرة النعمان

وكذلك أمير الجيوش أنوشتكين الذبيري أمير حلب ودمشق،
كان يثنى على أبي العلاء . . . »

ثم ذكر قصته مع أسد الدولة صالح بن مرداس صاحب حلب
وقبوله شفاعته في أهل معرة النعمان ، بعد أن كاد يبطش بهم سنة
٤١٧ هـ . ويروى ابن العديم هذه القصة على روايتين : إحداهما —
أن منكرًا ظهر بمعرة النعمان في زمن صالح بن مرداس ، فعمد شيوخ
البلد إلى إنكار ذلك المنكر ، فأفضى إلى أن قتلوا الضامن بها ، وأهرقوا
الحمر ، فجمعهم إلى حلب واعتقلهم وكان فيهم بعض بنى سليمان ،
فجاء الجماعة إلى الشيخ أبي العلاء وقالوا له : إن الأمر قد عظم وليس
له غيرك ، فصار إلى حلب ليشفع فيهم . . . إلى آخر الرواية .

والثانية — ما ترويه كتب الأدب ، ورواية ابن العديم أوسع

وهذه هي :

« ذكر لي بهاء الدين أبو إسحق أنه سار إلى حلب ، وما
أظن أن أبا العلاء بعد رجوعه إلى معرة النعمان من بغداد خرج عن
المعرة ، ولهذا سمي نفسه رهن الحبسين . وقد قرأت هذه الحكاية
في تاريخ سيره إلى بعض الهاشميين بحلب لأبي غالب همام بن الفضل
ابن جعفر بن المذهب قال : سنة سبع عشرة وأربعمائة ، فيها صاحبت

امراة في الجامع يوم الجمعة ، يعنى بمعة النعمان ، وذكرت أن صاحب
الماخور أراد أن يغصبها نفسها ، فنفّر كل من في الجامع إلا القاضي
والمشايع . وهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه ، وكان أسد
الدولة صالح في نواحي صيدا ، ثم قال في هذا التاريخ : سنة ثمان
عشرة وأربعمائة - فيها وصل الأمير أسد الدولة صالح بن مرداس
الى حلب وأمر باعتقال مشايخ المعرة وأمانتها ، فاعتقل سبعون
رجلا في محبس الحصن سبعين يوماً ، وذلك بعد عيد الفطر بأيام ،
وكان أسد الدولة غير مؤثر لذلك ، وإنما غلب تاذرس على رأيه ،
وكان يوهمه أنه يقيم عليهم الهيبة ، ولقد بلغنا أنه خاطبه في ذلك فقال
له : أقتل المذهب وأبا المجد - يعنى أخا أبي العلاء - بسبب ماخور !
ما أفعل ، وقد بلغنى أنه دعا لهم في آمد وميا فارقين ، وقطع عليهم
ألف دينار ، واستدعى الشيخ أبا العلاء بن عبد الله بن سليمان رحمه
الله بظاهر معرة النعمان ، فلما حصل عنده في المجلس ، قال له أبو العلاء :
مولانا الأمير ، السيد الأجل ، أسد الدولة ، ومقدمها وناصحها
كالنهار الماتع ، اشتد هجيره ، وطاب أبرداه وكالسيف القاطع لان
صفحه وخشن حداه ، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين .
فقال صالح : قد وهبتهم لك أيها الشيخ .

ولم يعلم الشيخ أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ، وإلا كان قد
سأل فيه . ثم قال الشيخ أبو العلاء بعد ذلك شعراً :

تغيبت في منزلي برهة ستير العيوب قليل الحسد
فلما مضى العمر إلا الأقل وحمل لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من اقوم رأى فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق فكم نفقت محنة ما كسد

وقد ذكر بعض الرواة أن صالحاً قال له عندما أنشده هذا الشعر :
نحن الذين نسمع مناسجع الحمام وأنت الذي نسمع منك زئير الأسد .
وهذا تاذرس المشار اليه في هذه الحكاية هو تاذرس بن
الحسن النصراني ، وكان وزير صالح بن مرداس وصاحب السيف
والقلم ، وكان متمكناً عنده ، وكان في نفسه من أهل المعرفة شيء
لأنهم قتلوا حماة الخوري ، وكان يؤذيهم فتبع قتلته ، وصلبهم
وقتلهم ، فلما أنزلوا عن الخشب ليصلى عليهم ويدفونوا قال الناس
حينئذ يكابدون النصاري : قد رأينا عليهم طيوراً أيضاً ، وما هي
إلا الملائكة ، فبلغت هذه الكلمة تاذرس ، فنقمها على أهل المعرفة ،
واعتدها ذنباً لهم ، فلما اتفقت هذه الواقعة من نهب الماخور شدد
تاذرس عليهم لذلك . »

ثقافته الأدبية

أما الفصل الذى عقده عن اضطلاعہ بالعلم والأدب ، ومعرفةہ باللغة ولسان العرب ، فلا حاجة إلى إيراده ، وفيه يقص ابن العديم مكانة أبي العلاء فى فنون الأدب مما نكتفى بالإلماع إليه .

كرمه وجوده

وقد أعقب هذا الفصل بفصل عن كرمه وجوده ، على قلة ماله ونزارة وجوده ، فذكر عدة قصص حسبنا منها هذه القصة الطريفة مع تلميذه الخطيب التبريزى ، قال ابن العديم :

وأخبرنى القاضى شهاب الدين أبو المعالى أحمد بن مدرك ابن سليمان ، يآثره عن المعريين ، أن الخطيب أبا زكريا التبريزى قدم على الشيخ أبي العلاء وأقام عنده مدة يقرأ عليه ، وأعطاه الخطيب صرة فيها ذهب وقال له : أوتر من الشيخ أن يدفعها إلى بعض من يرام لبشرى لى بها خبزاً ولحماً وما تدعو حاجتى إليه ، ويجرى ذلك على فى كل يوم لأتناوله مدة مقامى عنده للقراءة ، وأتوفر بذلك على

الاشتغال ، ويتفرغ بالى للاستفادة ، ويترفه خاطرى ، ولا يكون لى شغل غير ما أنا بصده .

فأخذ الشيخ أبو العلاء الصرة منه ووضعها عنده وتقدم إلى وكيه وأجرى للخطيب ماتدعو إليه حاجته ، فتناول ذلك مدة مقامه بمعة النعمان ، وهو يظن أنه من ذهبه الذى دفعه إلى الشيخ . فلما أراد الانصراف ودع الشيخ أبا العلاء فدفع إليه صرته بعينه ، فقال الخطيب للشيخ : ماظننت أنك تفعل هذا ولا أردت التثقيل عليك بغير الاستفادة من علمك ، وعرض له بأخذه ، فقال الشيخ : قد كان ذلك ولا سبيل إلى رد هذه الصرة على ، وهذا ذهبك بعينه . فأخذه الخطيب وانصرف رحمها الله تعالى . وكان الخطيب فقيراً محتاجاً .

* * *

والفصل الأخير من المخطوطة عن قناعة نفسه وشرفها ، وعفتها عن أخذ صلات الناس وظلفها ، وقد سرد فيه قصصاً طريفة تصبور علو نفسه وعزوفه عن زخارف الدنيا مما لا حاجة إلى إيراد بعد الذى قدمناه . وبه ، أى بهذا الفصل ، ينتهى ما وجد من الكتاب فى خزانة السرى الحلبى .

ونفهم من عدة نصوص أن المخطوطة ناقصة ، ففي أكثر من فصل واحد يذكر ابن العديم المؤرخ أنه سيستوفى الكلام عن هذه الناحية في موضعه ، ونحاول أن نبحث عن هذا الذى أشار اليه فلا نجده ، وبدهى وقد كتب كتابه هذا للدفاع عن أبى العلاء وإنصافه ودفع الظلم عنه - بدهى بعد أن يستوفى الكلام عن حياته وما رافق هذه الحياة من أحداث ، أن يعرض إلى الموضوع الذى ألف الكتاب من أجله .

نعم ، لقد عرض ابن العديم إلى كل ناحية من نواحي حياته فكتب عنها بإسهاب ، فلما وصل إلى لب الموضوع - إلى ناحية الدفاع عنه وتبرئته مما وصمه به خصومه - لم نر شيئا .

لا شك أن ابن العديم ، وهو مؤلف خصب الإنتاج ، واسع الاطلاع ، كتب أكثر من كتاب واحد في عدة موضوعات ، وكتب تاريخ حلب فى أربعين مجلدا - لن يقف من كتابته عن أبى العلاء عند الحد الذى أشرنا اليه ، بل كتب مئات الصفحات وغاص إلى أعماق فلسفته ، وبسط هذه القضايا التى كانت تشغل معاصريه ، وعرض إلى أقواله فى الزمان والمكان ، فى البعث والنشور ، فى الرسل والديانات ، فى المخلوق والمخلوق ، فرد على متهميه ودفع الظلم عنه ،

وأنصفه بعد البحث والتحقيق ، كل الإي نضاف .

لقد كان المعري في طليعة مفكرى العرب ، وكفيلسوف متشائم
حر أطلق رأيه بجرأة في الكثير من قضايا الفكر والنفس والروح ،
في حقائق الكون ، في طوايا البشر ، وقد فسر رأيه تفسيرات ملتوية
أثارت عليه حفيظة الكثيرين من معاصريه الذين عقدوا فصولا
طويلة عن سوء معتقده .

وهذا ياقوت يجمع لنا في الفصل الذى عقده عن أبى العلاء ،
طائفة من أقوال معاصريه ومن إليهم ممن جاء بعدهم من الكتاب
والمؤرخين ، وفيه نرى اتهاماتهم الصريحة في عقيدة فيلسوفنا الشاعر :
حسينا أن نقف وقفة قصيرة عند هذه الصفحات :

قال ياقوت : (١)

« ومن شعره الدال على سوء عقيدته من » لزوم مالا يلزم (٢) :
فقد طال العناء فكم تبانى سطوراً عاد كاتبها بطمس
دعاموسى وزال ، وقام عيسى وجاء محمد بصلاة خمس

(١) معجم الادباء ج ٣ ص ١٦٣ طبعة مصر

(٢) اكتفينا ببعض المقاطع دون جميع ما أثبت ياقوت

وقيل يحىء دين غير هذا فأودى الناس بين غد وأمس
إذا قلت المحال رفعت صوتى وإن قلت اليقين أطلت همسى
ومن ذلك أيضا :

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله وتزويجه بنتيه لابنيه فى الخنا
علمنا بأن الخلق من أصل زنية وأن جميع الناس من عنصر الزنا
ومن أشعاره الدالة على سوء اعتقاده :

وهيئات البرية فى ضلال وقد نظر اللبيب لما اعتراها
تقدم صاحب التوراة موسى وأوقع فى الخسار من افتراها
فقال رجاله وحى أئام وقال الناظرون بل افتراها
وما حجبى إلى أحجار بيت ؟ كؤوس الخمر تشرب فى ذراها
إذا رجع الخليم إلى حباه تهاون بالمذاهب وازدراها
وله أيضا :

خذ المرأة واستخبر نجوما ترمي طعام الأرى^(١) المشور^(٢)
تدل على المات بلا ارتياب ولكن لا تدل على المشور^(٣)

(١) الأرى : العمل (٢) أى المجتئى يقول : أشتار العمل : جناه

(٣) البعث والخروج من القبور

ومنها أيضا :

هفت الحيفة^(١) والنصارى ما اهدوا

ويهود حارت والمجوس مضللة

اثنت أهل الأرض : ذو عقل بلا

دين ، وآخر دين لا عقل له

ومنها أيضا :

إن الشرائع ألفت بيتنا إحنا^(٢)

وأورثتنا أفانين العداوات

وما أبيضت نساء الروم عن عرض

للعرب إلا بأحكام النبوات

ومنها أيضا :

ضحكننا وكان الضحك منا سفاهة

وحق لسكان البسيطة أن يكوا

(١) دين الاسلام

(٢) جمع إحنة ، العداوة

تخطئنا الأيام حتى كأننا
 زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك
 ومما يدل على كفره تصريحاً قوله :
 عقول تستخف بها سطور ولا يدرى الفتى لمن الثبور (١)
 كتاب محمد وكتاب موسى وإنجيل ابن مريم والزبور
 ومن ذلك أيضاً :

صرف الزمان بفرق الأيام
 فاحكم إلهي بين ذاك وبينى
 أنهيت عن قتل النفوس تعمداً
 وبعثت أنت لقتلها ملكين ؟
 وزعمت أن لها معاداً ثانياً
 ما كان أغناها عن الحاليين ؟
 ومن ذلك أيضاً :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل
 وترزق مجنوناً ، وترزق أحقاً
 فلا ذنب يارب السماء على امرئ
 رأى منك ما لا يشتهي قننذا
 ومن ذلك أيضاً قوله :

قلتم لنا خالق قديم
 صدقم : هكذا تقول
 زعمتموه بلا زمان
 ولا مكان ألا فقولوا
 هذا كلام له خبيء
 معناه ليست لنا عقول

ومن ذلك أيضاً قوله :

دين وكفر وأنباء تقال ، وفر

قان ينص ، وتوراة وإنجيل

في كل جيل أباطيل ملفقة

فهل تفرد يوماً بالهدى جيل ؟

ومن ذلك أيضاً قوله :

ولا تحسب مقال الرسل حقاً

ولكن قول زور سطروه

وكان الناس في عيش رغيد

فجاؤوا بالمحال^(١) فكدروه

قال المؤلف : نقلت هذا كله من تاريخ غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن الصابي ، وحمدت الله تعالى على ما ألهم من صحة الدين وصلاح اليقين واستعذت به من استيلاء الشيطان على العقول . قرأت في كتاب « فلك المعاني » أن كثيراً من الجهال يعدّ الموت ظلاماً من الباري عز وجل ، ويستقبله بما فيه من النعمة والحكمة ، والراحة والمصلحة . وقد قال أبو العلاء مع تحذلقه ودعواه

الطويلة العريضة وشهرة نفسه بالحكمة ومظاهرتة :
 ونهيت عن قتل النفوس تعمداً وبعثت أنت لقتلها ملكين
 وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كان أغناها عن الخالين !
 وهذا كلام مجنون معتوه ، يعتقد أن القتل كالموت ، والموت
 كالقتل ، فليت هذا الجاهل لما حرم الشرع وبرده ، والحق وحلاوته ،
 والهدى ونوره ، واليقين وراحته ، لم يدع ما هو برىء منه بعيد
 عنه ، ولم يقل :

غدوت مريض العقل والرأى فالقنى لتعلم أنباء العقول الصالحين «

ونقف عند هذا الحد مما نقله ياقوت ، لتساءل : ما رأى
 ابن العديم في أقوال أبي العلاء وفي أقوال خصومه ؟
 لا شك أن ابن العديم وهو صديق ياقوت ، قد اطلع على الفصل
 الذى عقده عن أبي العلاء ، ولا شك أنه رد عليه رداً مفجاً . .
 فأين القسم الباقى من الكتاب ؟

من المؤلم جداً ألا يظفرنا الدهر بهذا القسم من رسالة قاضى
 قضاة حلب ! فلرأيه قيمته ، وقد عرفنا هذا الرأى من عنوان الكتاب
 وعرفناه صريحاً من المقدمة التى حمل فيها حملة شعواء على خصوما

الذين جعلوا «محاسنه عيوباً ، وحسناته ذنوباً ، وعقله حمقاً ، وزهده فسقاً ، فرشقوه بأليم السهام ، وأخرجوه عن الدين والإسلام ، وحرّفوا كلامه عن مواضعه ، وأوقعوه في غير مواقعه »

وهذا الذي دفع ابن العديم ، بعد أن قرأ أكثر مصنفات أبي العلاء أن يكتب رسالته هذه يدفع عنه هذه التهم التي اختلقها خصومه والذين حكوا كفره بالأسانيد ، وشدّدوا في ذلك غاية التشديد ، وكفره من جاء بعدهم بالتقليد .

يقول ابن العديم تعقيماً على هذه الفقرات في مقدمته :

«فابتدرت دونه مناضلاً ، وانتصبت عنه مجادلاً ، وانتدبت لمحاسنه ناقلاً ، وذكرت في هذا الكتاب مولده ونسبه وتحصيله العلم ، وطلبه ، ودينه الصحيح ومذهبه ، وورعه الشديد وزهده ، واجتهاده القوى وجده ، وطعن القادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنه وصدّه »
وإذا كنا وقفنا من الكتاب على الفصول التي عقدها عن مولده ونسبه وتحصيله للعلم فأين الفصول التي عقدها عن دينه الصحيح ، ومذهبه ، وطعن القادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنه وصدّه . أين هذه الفصول ؟...

من المؤلم ألاّ يظفرنا الدهر أو خصوم أبي العلاء بهذا الذى

كتبه ابن العديم ١١

ولكن أما وقد عرفنا رأيهِ الصريح من المقدمة، ومما جاء فى بعض
فصول الكتاب وهو يقص سيرة حياته - فإننا نقدر قيمة ما كتبه
الشيخ كمال الدين ، قاضى قضاة حلب الذى لم يضطلع بهذه المهمة
الخطيرة إلا بعد وثوقه من القضية التى نصب نفسه للدفاع عنها ،
كالحامى النزيه الذى لا يقحم نفسه بالدفاع عن قضية ما إلا بعد أن
يسنوثق من أحقية القضية وعدالتها .

نعم ، ولعل الزمن يظفرنا ، فى يوم ما بنسخة كاملة من هذه
المخطوطة ، فيتاح لنا نشرها كاملة كوثيقة من وثائق الدفاع عن حرية
الفكر فى العصر المابغى كتبها المؤرخ المحقق كمال الدين
ابن العديم - هذا القاضى ، الوزير السفير الذى لعب أكبر دور
فى تاريخ حلب السياسى ، وتاريخ العلاقات بين مصر والبلاد العربية ،
وكان حظه من الأدب والتاريخ والجهاد القومى والفكرى ما يضعه
فى طليعة مفكرى العرب ورجالها البارزين .

من نصوص المعاصرين
في عقيدة ركن المحبسين

أكثر الذين ينتصرون لأبي العلاء يثبتون أنه رجل مسلم سنيّ ، وأما ما في كلامه مما يشير إلى خلاف ذلك فكذب ، أو موهم يجب تأوله والتأمل فيه . والذين يثبتون له الشك لا يريدون بذلك تقرير حقيقة علمية في فلسفة الرجل ، وإنما عجّزوا عن إثبات إسلامه ، وضنوا به على الإلحاد ، فوقفوه موقف الشك الذي يرجى أن يغفره الله ويعفو عنه . والواقع أن أبا العلاء لم يتخذ لنظره الفلسفي مذهب أهل السنة ، ولا مذهب السوفسطائية وأصحاب الشك ، ولا مذهب المعتزلة أيضاً .

ذلك أنه لا يؤمن إلا للعقل وحده ، يخالف بهذا أهل السنة لأنهم يقدمون الشرع على العقل ، وإن آمنوا به . وخالف مذهب المعتزلة لأنهم على تقديمهم للعقل يتخذون الشرع لنظرهم أصلاً ودليلاً يعتزون به ويلجأون إليه . وخالف مذهب السوفسطائية ، لأنهم يتهمون العقل فلا يؤمنون له ، ولا يعتمدون عليه . وإذا فهو يرى رأى الفلاسفة النظريين ، من اليونان ، والمسلمين ، في الاعتماد على العقل خاصة .

أبو العلاء كان منكراً للنبوات ، جاحداً لصحتها ، وقد نص
على ذلك في اللزوميات صراحة غير مرة ، فطوراً يثبت أنها زور ،
وطوراً يجعلها مصدر الشرور ، وافتن في ذلك افتناناً عجيباً ، فلم
يكتف بانكار النبوات ، حتى أنكر الديانات عامة . وزعم أنها للعقل
مخالفة ، وعن شرعته صادقة ، يسلك في ذلك مسلك التورية مرة ،
والتصريح مرة أخرى . . .

طه حسين

(٢)

لقى أبو العلاء من الذين تصدهم ظواهر الألفاظ دون بواطنها ،
ما يلقاه كل مفكر خلص من أغلال التقليد ، فاتهمه من لا يفهمه
بالإلحاد والزندقة . وقولوه ما لم يقله من الشعر المزرى بالأديان ،
الحاط من كرامة مؤسسها ، وتصدى كثير من أئمة المتأدين لتبرئته
مما نسب اليه ، فكان من أثر ذلك أن تكون حول اسمه جو غريب
حمل الكثيرين من أهل الورع على كراهية شعره ، حتى إن مصحح
المطبعة الأميرية تخرج منذ أربعين سنة من تصحيح لزوميات
أبي العلاء ، وكان ناشرها يطبعها هناك . فجاءت كثيرة الأخطاء
من جراء ذلك .

لم تكن لأبي العلاء المعرى فلسفة معينة ، ولا مذهب مقرر ،
فان كان لابد من وضع اسم على الحالة التي كانت عليها نفسيته ،
فهي الحيرة والتشاؤم المزوج بالتهكم ، أشبه الناس به من معاصرنا
كان السيد جميل صدق الزهاوى الشاعر البغدادي رحمة الله عليه ،
فقد كان حائراً متناقضاً متشائماً متهمكاً ، فيينا كان يقول :

قال مادينك الذى كنت فى الد : يا عليه وأنت شيخ كبير
قلت كان الإسلام دينى وه و دين بالاحترام جدير
قال من ذا الذى عبت فقلت ال له ربى وهو السميع البصير
إذا به يقول :

لما جهلت من الطبيعة أمرها وأقت نفسك فى مقام معل
أثبت رباً تبتغى حلاً به للمشكلات فكان أكبر مشكل
ويقول :

أنا ما كفرت كل ع رى بالكتاب المنزل
أنا لم أزل أشدو بنع ت للنبي المرسل
فهذه الحالة من التناقض والحيرة التي كان عليها الزهاوى ، وكان
عليها قبله شيخ المعرة ، لا تصح أن تكون مذهباً ولا مستمدة من مذهب .

محمد فريد ومبرى

(٣)

وقد نقل المعرى الشعر العربى فى عصره نقلة واسعة المدى :
 حمل الشعر من المعانى الفلسفية العميقة ومن الآراء النظرية المتباينة
 ما لم يسبقه اليه غيره من شعراء العرب إلا المأما ، وقد اتهم لذلك بالزندقة
 آنأ ، وبالإلحاد آخر ، على حين اعتبره قوم على رأس أشد المؤمنين
 غلوآ فى إيمانهم . ولا عجب فى هذا ولا فى ذاك ، فتقلب الأفكار
 وعرضها على الناس ، مطبوعة بطابع من يعرضها ، منكورة فى كثير
 من الأحايين ما وجد الناس عليه آباءهم ، قد كان فى عصور كثيرة
 وفى بلاد مختلفة ، موضع الرية والظن ، بل موضع الاتهام والتجنى .
 ذلك أمر لم تنفرد به البلاد العربية ولا البلاد الإسلامية ، بل جرى
 حكمه على الأمم كلها فى الأزمان المختلفة ، وكان فى بعض الأمم
 سيأ فى تعديل أصحاب الرأى لرأيهم ، مما نجا منه العرب والمسلمون ،
 فلم يتورطوا فيه كما تورط أهل أوروبا فى القرون الوسطى .

محمد حسين هبكل

(٤)

لو أن المعري كان كاهناً هندياً برهمياً متريفاً لما عجبنا للأمر
— أمر تحريم اللحوم — لأنه إنما يخضع لسلطان عقيدة دينية ويخشى
عقاب قدرة إلهية. أما وهو رجل قد شك في الديانات وهزأ بشعائرها
وفرائضها فمن العجيب حقاً ألا يكون له باعث على ترك اللحم
أربعين سنة إلا الايمان بذهب البراهمة .

العزاد

(٥)

لم يصل إلينا من آثار أبي العلاء العلمية والأدبية إلا قل من
كثير ، والذي وصل إلينا مغمور بالشعور الديني ، طافح بالأدلة على
إيمان أبي العلاء وصحة عقيدته ، ومن هذه الآثار ما زعم قوم أنه
عارض به القرآن واتخذوا ذلك وسيلة للظن في دينه . فلما طبع بعضه
تبين أن ليس فيه شيء من المعارضة ، وإنما هو تمجيد لله .

وأعظم كتاب فيه ما يتمسك الـ اعنون به هو «لزوم ما لا يلزم»
فإن فيه آياتاً تتعلق بالنبوات لا يمكن تأويلها على وجه قوى ، وهو

قليلة جداً ، فان كانت مما أدخله عليه تلاميذه وحساده ، وهو أقرب إلى حالة أبي العلاء ، فلا يؤاخذ بها ، وقد افترى عليه في حياته واستدعاه أمير حلب من أجل أبيات حرقها أعداؤه ، فأبان تحريفهم وافتراءهم بنسخ كانت في حلب لم تصل إليها أيدي المفتريين ، فلما تبين الأمير صحة ما قاله رده إلى بلده مكرماً .

* * *

وفي السقط والفصول وملق السبيل وغيرها ما لا يعد من الشواهد الصريحة الواضحة . ومنهم من يقتضب جملة من قوله في رسالة ، أو ليتاً من شعره في قصيدة ، فيزعم أن أبا العلاء أراد به معارضة القرآن . والمنصف يرى أثر التعنت والافتراء جلياً في هذه المزاعم .

حسبنا أن نعلم أن العلاء أسرفوا في تكفير أبي العلاء . واعتمدوا في ذلك على شبه وأوهام ، وأنهم جعلوا دينه نهياً مقسماً بين الأديان ، فجعلوه زنديقا وملاحداً ومزدكياً وبرهمياً وقرمطياً ودهرياً ، ولا يستبعد أن يأتي يوم يجعل فيه أبو العلاء متديناً بكل دين كان ، معتصماً بكل نحلة تكون ، معتقداً لكل مذهب سيكون .

تبعته ما وصل إلى يدي من شعر أبي العلاء ونثره ، فرأيت الرجل مؤمناً بالله إيماناً صادقاً راسخاً يصفه بجميع صفات الكمال ، وينزهه عن جميع صفات النقص ، أما الايمان والنبوات واليوم الآخر وما إلى ذلك فيمكنك أن تجمع من شعر أبي العلاء ونثره مجموعاً يصلح أن يكون مرجعاً للمتقين ، والزهاد المخلصين . ومن الجهة الأخرى يمكنك أن تلتقط ثغراً منتشرة في ثنايا منظومه ومشوره تعين عن ترده وشكوكه ، وهذا مادعا الكثيرين من الأولين إلى القول بأنه من أهل الشك . على أنه لا يعسر على اللبيب تأويل الكثير من تلك الأقاويل ، وإعادتها إلى نصاب الصواب .

لقيني شاب بالأمس ، فسألني : أأبو العلاء مؤمن أم كافر ؟
فقلت له على الفور :

أتريد أن تجعله إماماً في مسجد ؟ انتقل الرجل إلى جوار ربه ، وهو أعلم بدخيلة أمره ، وجليه سره . فما شأنك في هذا ؟

له الراوى
عضو المجمع العلمى العربى

لأبي العلاء فلسفته إلهية ، وهى جانب كبير من فلسفته ،
والدين من أهم المسائل التى شغلت لبه طول حياته ، وهو شاك
رافض لمعظم ما كان يدين به معاصروه من عقائد ، متعجب لما يرى
من خلاف بين أتباع اليهودية والمسيحية والاسلام ، وليس ينفرد
أبو العلاء بالشك والزيف بين أدباء العربية ، ولكنه يمتاز عن
سواه فى هذا الأمر امتيازاً عنه فى سواه ، فان المتزندقين من أمثال
بشار وحماة وأبى نواس كانوا قوماً مستهترين متهاكين على اللذات
لا يكرههم أمر الدين إلا ريثما يتحكمون بالمؤمنين ويتحدون عقائدهم .
أما أبو العلاء فكان زاهداً لا مستهتراً ، محرماً على نفسه متع
الدنيا لا متهاوناً عليها . وما انتهى إلى الشك اعتباطاً ولا استهتاراً
ولا لسوء صحة أو ضعة بيئة أفسدت خلقه ومعتقده ، وهو الناضى
فى بيت التقى والفضل ، وإنما انتهى فكره الناصب إلى الشك بعد
طول التأمل والنظر وبعد شديد العناء والجهد ، وبعد أن حاول أن
يصل إلى اليقين ، ويقتنع بما يقتنع به غيره دون طويل بحث ولا
تساؤل . وكـم طلب اليقين من جهينة كما قال فلم تخبره جهينة سوى
الظن ، ولو ارتاحت نفسه إلى الإيمان عن اقتناع لكان أول
المؤمنين وأحسنهم عقيدة .
فخرى أبو السعود

(٨)

فالمعري ، على ما أعتقد استنباطاً من أشعاره وأقواله ، زاهد غاية في الزهد ، عابد منقطع في عبادته ، متقلل يأخذ نفسه بالخشونة قانع باليسير ، معرض عن الدنيا وزخرفها ، وهذا مما يجعلني أميل إلى الاعتقاد بأن « نباتيته » ناشئة عن شقيقته وزهده وتقشفه لا عن زندقته وإلحاده .

أما ماورد في أشعاره مما يصحح أن يؤخذ عليه فلا يبعد أن يكون مدسوساً عليه للنيل منه ، فقد جاء عنه : « أنه كان يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الإيثار يضمونها أقاويل الملحدة قصداً لهلاكه وإيثاراً لا تلاف نفسه »
ومما يدل على ذلك قوله :

حاول إهواني قوم فما واجهتهم إلا بإهوان
يخرشوني بسعائاتهم فغفروا نية إخواني
لو استطاعوا المشوا بي إلى المريح في الشهب وكيوان
الدكتور محمد عبد الحميد

الاضطراب السياسى فى عصر ابى العلاء واثره فى بيئته وشعره

البحث الذى ألقاه المؤلف فى المهرجان الالى
لابى العلاء المعرى بدعوة من المجمع العلمى العربى

عاش شاعرنا الفيلسوف في فترات الانهيار السياسي - في تلك
الفترات السود التي تصدعت فيها السيادة العربية على مذبج الشهوات
التي كانت تضطرم في صدور المتغلبين من الديلم ومن إليهم من
الاعاجم المتسلطين .

نعم ، عاش شاعرنا في نهاية هذه الفترات والبلاد العربية
تعصف بها الزعازع وتهزها الأعاصير . فكان الحكم في بغداد غيره
في مصر ، وفي بلاد الشام غيره في القطرين المتنازدين . وهو في
أقصى المغرب ، في الأندلس وفي شمال إفريقية ، غيره في الأقطار
العربية الثلاثة - كل شيء قد تعرض للتميع والتفكك ، ففسدت
الحياة السياسية وفسدت الحياة الاجتماعية حتى أصبحت الدنيا
العربية وكأنها على بركان .. دول مختلفات المنازع والأهداف قد
انتشرت في الرقعة الإسلامية الكبرى ، نزعات فردية في إهاب من
من المطامع الصارخة تيجش في كل صدر ، جمعيات سرية تستهدف
غايات مريبة ، مذاهب جديدة هدامة ترمى إلى نزعات سياسية خطيرة .
كل شيء قد فسد واضطرب ، وأبوالعلاء ينظر إلى هذه التيارات
الجارفة نظرة الفيلسوف الإنساني المتألم وقد أشفق - وهو الحكيم
البعيد النظر - أن تنهار هذه الأمبراطورية الكبرى في الفترة التي

وصلت فيها الحياة العقلية الى الذروة ، وأن يكون لبيثته النصيب
الأوفر من مأساة هذا الانهيار ..

ولعل من أدق الأمور التي تستدعي انتباه الباحثين أن تجرى
أحداث الحياة منذ فجر التاريخ الاسلامى فى الأقطار العربية الثلاثة
مصر أو الشام والعراق - على غرار واحد من الإيحاء أو التهديم ، من
النظام والفوضى ، فما يجرى اليوم مثلاً من تجاوب بليغ للنهوض
والتححرر وللتطور والتماسك كان يجرى بالأمس ، فى تلك الفترة ،
وفى نفس هذه الأقطار بالضد ، من تنافس وتناحر ، من تنازع
وتخاذل ، وثورات وفتن ، أدت إلى انهيار سحيق ذاق العرب مرارته
طويلاً عبر القرون .

هذا التنازع الذى كان طابع الحكومات الإسلامية فى عصر
أبى العلاء هو الذى قضى على ما كان للخلافة من السلطان السياسى .
ذلك السلطان الذى تجاذبته مصر وبغداد مدة غير قصيرة .

كانت بغداد خاضعة للديلم أو للأسرة البويهية التى حكمت
العراق وفارس حكماً أو توقراطياً فيه هذا التكالب على السلطة والمال
وهذا التزاحم على المجد والسلطان ، وهذا الصراع الدامى بين أبناء
العمومة وحتى بين الأخ وأخيه . وإذا كان للخلافة هذا السلطان

المدوّى فى الرقعة الإسلامية الكبرى ، وكانت النفوس تتطلع إلى
بريق سلطانها كقوة من القوى الروحية والزمنية معاً ، كان من
البداهة بمكان ، وقد تقلص ظلها فى بغداد ، أن يطمح إليها
الفاطيون بعد أن ملكوا مصر .

وللفاطميين هذه الدعوى التى تربطهم بآل البيت . فقد ادعوا
هذه الوشائج القوية بين نسبهم ونسب فاطمة بنت الرسول ، وبرغم
ماقامت به بغداد من الاحتجاج الصارخ على هذه الدعوى الباطلة ،
وما تبع ذلك من احتجاج بعض المنتسبين إلى آل البيت فى القاهرة
نفسها وطلبهم الحجة الساطعة على هذا البرهان ، فقد أثبتوا هذه
الدعوى بقوة السيف وبريق الذهب . وكلمة المعز لدين الله يذكرها
كل من قرأ تاريخ الفواطم : أتريدون البرهان على نسبى؟ ها كم فاقراؤه !

سل نصف سيفه من غمده ، وقال لهم : هذا نسبى !

ونثر عليهم ذهباً كثيراً ، وقال : هذا حسبى ! ..

ماذا كان موقف المعارضين من هذين البرهانين القاطعين ؟

كان جواب الجميع : السمع والطاعة !

وانتهت ذبول هذه الحركة عند هذا الحد ، وأصبحت الخلافة
فى مصر أقوى منها فى بغداد ، وأخذت الدعوة العباسية تنكمش فى

حدود ضيقة بعد أن أصبح الخليفة الشرعى فى بغداد ، ألعوبة فى
أيدى الأمراء البويهيين المتسلطين . .

والشام - وأريد بيثة المعرى - ماذا كان شأنها فى جون
هذه الأحداث ؟

كانت مسرحاً لفتن وحروب متعاقبة لعل أقربها الى عهده
تلك الحروب والغزوات التى أثارها الأمير سيف الدولة توطيداً
للكيان العربى وصونا لثغور الشام من الغزو البيزنطى . . .

وإذا كانت الأيام لم تسعد المعرى أن يرى المجد الشامخ الذى
شاده الأمير الحمدانى فى السياسة القومية والحياة العقلية، فقد شاهد ،
وهذا ما زاد فى محتته ، لو لنا من ضعف الساسة وفساد الرأى فى ابنه
سعد الدولة ، وفى حفيده أبى الفضائل . وإذا تركنا الكلام عن
ابن سيف الدولة لأن ملكه لم يطل ولم يتميز بالأحداث الخطيرة ،
فترجو أن يطول حديثنا قليلاً عن حفيده أبى الفضائل ، فقد انتهى حكم
الدولة الحمدانية والدنيا العربية على ما وصفنا، ولم يكن أبو الفضائل كجده
بل كانت مطامحه منحصرة فى الملك، دون أن يعطى للمملكة حقها من
التضحية والبذل ، أى كان يريد أن يحتفظ بصولجان الملك رخيصةً ،
وكانت أهدافه تختلف كل الاختلاف عن أهداف جده - هذا يفكر

في مجد أمته وبلاده ، وذلك في مجده الشخصي ، والفرق جد بعيد بين الاتجاهين . . وإذ كانت بلاد الشام تتمتع بالحكم الذاتي على أيدي أمراء مختلفي المذاهب والأهواء فقد فكر الفاطميون في ضمها إلى مصر لاسيما بعد أن تضاعف سلطان بغداد الروحي كما تضاعف سلطانها السياسي . .

وقد عزز هذه الفكرة الرغبات التي أثارها بعض زعماء حلب الناقين على حكم أبي الفضائل من جهة ، وإغراء الوزير المغربي للخليفة الفاطمي بوجوب الاستيلاء على حلب وأطرافها من جهة أخرى ، ونزلت هذه الرغبات من نفس عزيز مصر منزلة طيبة ، فجهز حملة كبرى إلى بلاد الشام لضمها إلى المملكة الفاطمية . وناط أمر هذه الحملة بأحد غلمانه الأتراك الذي استطاع أن يخضع البلاد الشامية كلها دون حلب التي امتنعت على مصر للخلعة المزرية التي انتهجها أميرها . ماذا؟

استغاث أبو الفضائل بياسيل الثاني إمبراطور الروم لمحاربة الفاطميين . . وبذلك اقترف أكبر غلطة سياسية بهذه الصلات التي خلقتها مع أعداء البلاد الطبيعيين ، فهدم الحفيد بيديه الأثيمين ما بنه الجور . . أي هدم هذا ؟ لقد مديده إلى الأجنبي - تحقيقاً

للزوات الشخصية الهاججة والأناية السوداء ، وقال له :
 إن البلاد مفتوحة الصدر لكم . فها ادخلوها مطمئنين قبل
 أن يزلي ملك مصر الفاطمي عن عرش آبائى وأجدادى . .
 وتالت الأحداث والحروب مدة أربع سنوات كاملة بين
 البيزنطيين والفاطمين كتب فيها النصر للفاطمين أولاً ثم للبيزنطيين
 الذين بسطوا سلطانهم على بلاد الشام بفضل هذه المعاهدة أو بفضل
 هذا الخضوع المزرى لأعداء الدين واللغة والعادات والوشائج والدم ،
 ولم يقف للفاطميون موقف المتفرج من هذه الأحداث بعد أن مست
 سلطتهم ، بل جهزوا حملة ثانية لدفع البيزنطيين عن بلاد الشام ، فنجحوا
 وسقطت حلب فى أيدي الفاطمين الذين قضوا على السياسة الخرفاء
 التى اتتهجها أبو الفضائل الذى اعتمد ، مع وزيره أولو ، على الأجنبي
 فى توسيع شقة الخلاف بين مصر والشام .

وهكذا ، فقد مثلت ، فى تلك الفترة ، وفى بيئة المعرى ،
 رواية من أفجع مآسى التاريخ هى نتيجة هذا الاضطراب السياسى
 الذى ساد البلاد العربية كلها . فقد كانت الأطماع تهدد بلاد الشام
 من الشمال ومن الجنوب ، أما أطماع الجنوب فهما قليل عنها ، فهى
 فى اعتقادى هيئة يسيرة ، هى أطماع الفاطمين الذين يحكمون مصر

وهم يتون إلى العروبة بنسب عريق . أما أطاع الشمال فهي السيف
يحز العنق — أطاع الأعداء الطبيعيين لهذه الأوطان التي حماها
سيف الدولة فترة غير قليلة من مطاعمهم نجاء أبو الرذائل — أريد
حفيده المسمى أبا الفضائل — يفتح صدره لهم ويمهد الأسباب لدخول
أعظم تغور المملكة الإسلامية .

وإن كتب التاريخ لتقص لنا هذه الفترات بما يدمي القلب ويدمع
العين . وليس كالأديب رجل تعاف نفسه شرور السياسة وشرور
الحروب والقتال . . وقد فكر في بقعة تكون في معزل عن هذه
الشرور ، فرأى بغداد أهدأ حالا من الشام ، وهي إلى هذا كعبة
العلم والأدب ، فشد إليها الرحال . ومكث فيها سنة وبعض سنة فما
الذي أفاده من هذه الرحلة التي تركت في نفسه أجمل الذكريات ؟
لقد خرج بفكرة لاغموض فيها ، وهي أن الانسان ، بالرغم مما لقيه
من كرم البغداديين وحسن وفادتهم ، هو هو في جبلته وطبيعته ،
وأن الحكماء هم هم في كل مصر ووطن . وانهى إلى الرأي
تلاقى وروح فلسفته الخزينة التي تقوم على الشك واليأس :

وإن الشام مذمومة صفران ما بهما للملك سلطان
شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان

وعاد الى وطنه ، وإذا التنافس على أشده ، وحلب تشهد من جديد هذا الصراع الدامى فى أرضها ؛ وشهد أبو العلاء هذا الصراع بين أحفاد الحمدانيين أو غلمانهم والمتغلبين من أعراب الشام وعلى رأسهم صالح بن مرداس ، ثم بين المرداسيين والفاطميين ؛ وأخيراً بين المرداسيين وغلمانهم الذين ثارت فى نفوسهم شهوة الحكم أيضاً مما لا يسمح المجال لأن نتص تفاصيله بأسهاب .. نعم ، شهد فيلسوفنا الحكيم هذا الصراع الدامى المتعاقب ، وبديهى أن تؤله هذه الأحداث وأن يكون لعواملها الأثر الأكبر فى فلسفته وأدبه ؛

فأبو العلاء أديب حساس ، وشاعر عميق التفكير وفيلسوف حر ذو نظرة نافذة ، رأى وطنه نهياً للأهواء والشهوات ، ورأى البلاد العربية وقد انتهت الى ما انتهت اليه من الضعف والاضطراب والفوضى — بديهى أن يؤثر ذلك فى أدبه ، وأن تشيع روح السخرية فى هذا الأدب ، وأن يقسو قسوة مرة على من يظهرون بصور من ملائكة الرحمن بينما هم أبالسة فى إهاب إنسان .

لقد آلمته هذه الأحداث العاتية التى هزت البلاد العربية من أقصاها الى أقصاها .. ولعله فكر بالنزوح عن وطنه .. ولكن الى أين والدنيا العربية فى لهيب محترق من الفوضى .. لقد فكر بالهجرة

الى الحجاز .. ولكن ..

أما الحجاز فما يرجى المقام به . لأنه بالحرار الخمس محتجز^(١)
والشام فيه وقود الحرب مشتعل يشبه القوم شدت منهم الحجز^(٢)
وبالعراق وميض يستهل دما وراعـد بقاء الشر يرتجز
إلى أين يذهب ؟

كل البهلاء ذميم لا مقام به وإن الحجاز عن الخيرات محتجز
وان حلت ديار الوبل والرهـم وما تهامة إلا معدن التهم
والشام شوم وليس اليمن في يمن ويثرب الآن تريب على الفهم
كان يفكر فيلسوفنا بالهجرة الى أية بقعة عربية قدخلت من فساد
عصره ومخازيه ، وقد ودأ أكثر من مرة الخلاص من هذا المأزق :

كيف التخلص والبسيطة لجة والجو غيم بالنوائب يسجم
فسد الزمان فلا رشاد ناجم بين الأنام ولا ضلال منجم
الى أين يذهب وكل أرض قد ملئت بالمفاسد والشرور ؟

قبع في بيته ، في سجنه الضيق ، وأخذ يرسل صيحاته الصادقة

(١) والحرار ، جمع حرة وهى أرض ذات حجارة سود مخمرة كأنها أحرقت بالنار ،
والحرار الخمس : هى حرة شوران ، وحرة ليلى ، وحرة واقم ، وحرة النار ، وحرة
بني سليم (٢) الحجز جمع حجاز وهو كل ما تشد به وسطك لتشم ثيابك .

فى تصوير طباع البشر — طباع أولئك المسيطرين على دفة السياسة،
المتربعين على دست الحكم وقد نسوا أمنيات شعبهم ، ونسوا أولى
واجباتهم كخدام للمصلحة العامة ، فكانوا مطية الأهواء ومطية
الشهوات دون أن يفكروا بالمسئولية الكبرى الملقاة على عاتقهم
وهى خدمة الشعب وإنهم أجراؤه لا أسياده :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
وليس كالمعري أديب شاعر عرف سجايا البشرية وطواياها
فوصفها أبلغ وصف كما وصف هذه الشهوات التى كانت لا تعرف غير
النهب والاستلاب . فكان ، رغم عزله ، ذا اتصال مباشر بهذه
القضايا التى تشغل الشعب سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية
أو الاجتماعية أو الخلقية . . .

فى الواقع ، أن أبا العلاء قد اعتزل البشر ، ولكن هل كان
هذا الشيخ الوقور الذى يعتبر حكيم العصر وفيلسوفه بحق ؛ بعيداً
عما يمثل على مسرح البشرية ؟ . . كلا . إن عزله لم تحصنه عن
شكاوى الأفراد والجماعات . وكانت شخصيته الفذة تجذب الناس
على اختلاف طبقاتهم الى سجنه المتواضع ، يحل قضاياهم ومعضلاتهم

ويتوسط لدى أولى الأمر برفع ظلاماتهم . وقصة عصيان أهالى المعرة على سياسة أمير حلب صالح بن مرداس ، وإلقاءه القبض على سبعين شخصاً من زعمائها ، وتجهيز حملة للقضاء على مثيرى تلك الفتنة ولجوء كبار القوم الى أبي العلاء ليشفع لهم لدى صالح وقبول ابن مرداس شفاعته . - إن هذه القصة تدل دلالة بالغة على أنه كان على اتصال بما يجرى على مسرح السياسة ، وأن القوم لم يتركوه يتمتع بعزلته . وهذا ما كان له أكبر الأثر فى أدبه ، ولو اعتزل البشر حقاً كالرهبان المتبتلين أو الصوفيين المتجردين لكان لون أدبه يختلف كل الاختلاف عن هذا اللون المغموس بأعماق النفس البشرية .

وفى اللزومات ، وفى رسائله نقرأ الكثير من هذه اللزمات التى تصف اضطراب السياسة ، وسوء الادارة ، وفساد الحكم .

فالساسة التى تسير على الأهواء والنزوات ، ولا تستند على الفكر الرجيح المتزن - هى فى نظره - سياسة خرقاء ..

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال سياسة فاف من الحياة وأف منى ومن زمن رئاسته خسارة هذه السياسة المضطربة التى غمرت يئته وكل بقعة من الأرض

العربية هي التي كانت تستثيره ليصف هذه الأهواء الجامحة . لقد تساءل أكثر من مرة كيف لا يثور الشعب ضد تلك السياسة الفاشية؟ كيف يدفع الأفراد الضرائب والمكوس وهم يشاهدون ملوكهم وقد أصبحوا عبيد الشهوات واللذات ..

وأرى ملوكا لا تحوط رعية فعلى م تؤخذ جزية ومكوس؟

* * *

وجدت الناس في هرج ومرج غواة بين معتزل ومرجى
فسأن ملوكهم عزف ونزف وأصحاب الأمر جباة خرج

* * *

أتعجب من ملوك الأرض أمسا للذات النفوس عبيد قن
فيا لذلك العصر الذى عاش فى صميمه ، لا هم للملوك وزعمائه
إلا لذاتهم وأهواؤهم ، وإلا مصادرة أمزال الناس ، وإشاعة
الفوضى فى البلاد . والزيف فى قرارة النفوس - هذا العصر المضطرب
الذى عاش فى أعاصيره وأهوائه قد جعله ، ونفسه أميل الى التشاؤم ،
ينظر إلى الدنيا هذه النظرة السوداء ، ويراه على حقيقتها ، أى أن
شروها يرى أغلب ..

عرفت سجايا الدهر أما شروره فتقد ، وأما خيره فويعود
إذا كانت الدنيا ، كذلك نفلها . ولو أن كل الطالعات تعود

رقدنا، ولم نملك رقاداً عن الأذى وقامت بما خفنا ونحن تعود

* * *

قالوا فلان جيد لصديقه لا يكذبوا . . مافى البرية جيد
فأميرهم نال الامارة بالحناء وقيمهم بصلاته متصيد
لقد سئمت نفسه هذه المحازى — هذا التنازع على إمارات
كاذبة ، هذه المذاهب الاجتماعية والسياسية التى شاعت فى عصره
والتي كانت فى مظهرها ذات رواء جميل . . ولكن من هم رجالها
من لا تطمئن إليهم النفوس . . من صميم الشعوبيين ^(١) .. كان يرى

(١) كان ينكر الشعوبيون كل فضل للعرب ، وقد شبه أحد الكتاب مبادئهم بمبادئ
الشيوعيين فى عصرنا هذا . « وكان الشعوبيون يقولون بمساواة الأفراد والطبقات ، ومن
أقوالهم فى الرد على العرب أن النبي نفسه سارى بين المسلمين على اختلاف ملأهم بقوله :
« ليس لعربى على عجمى من فضل إلا بالتقوى » . وكان الشعوبيون ينوبون بدفاعهم عن
كل أمم الأرض فى ذلك العهد — أى فى العصر العباسى — الا العرب ، فاذا افتخروا
بملوكهم ذكروا الفراعنة والهند والبالقة والأكامرة والقياصرة وافتخروا بسليمان
الحكم والاسكندر الكبير وملوك الهند . واذا فاخروهم بالانبياء والمرسلين ذكروا
الانبياء من آدم الى أيامهم . واذا فاخروا بالعلم والصناعة والفلسفة ذكروا اختراع
لعبة الشطرنج ورمانة الثعبان والاسطغلاب وغفروا بقليلة اليونان واشعارهم وهولومهم
وطولم الهند والفرس وغيرهم .

وذكر صاحب المقد الفريد أنه بلغ من جوارء بعض أنصار للشوعية أنهم كانوا
يقولون : « ما الذى تفتخر به العرب على العجم ، فانما هى كالفنائب العادية والوحوش
النافرة بأكل بعضها بعضاً وغير بعضها على بعض ، ارجأها موقوفون فى خلق الأشر
ونسأوها سبايا مردفات على حقائب الابل ، واستشهدوا على ذلك بأبيات من أقوال
العرب تدل على ضعف غيرتهم على العرض ونظموا المطاعن فيهم ، مع أن الكثيرين من كتاب العرب
ومؤرخيهم قصدوا الرد على الشوعية ومنهم ابن قتبية فى « تفضيل العرب » الحلال سنة ٤٣٠ هـ ١٢٢٣

في هذه المذاهب الشائعة التي سادت عصره وسيلة للسيطرة والحكم ،
فما كان أصحابها ليقصدون المثل العليا في مذاهبهم التي ابتدعوها
ودعوا إليها ، سواء منهم القرامطة ^(١) أو غيرهم .

إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
أولئك الرؤساء الذي عرف خبيثة طواياهم فازدراهم شرار ذراء ،
هم الذين كانوا يثيرون الفتن والحروب في سبيل مطامعهم الدنية
وأجنادهم الكاذبة .

كانت هذه الفتن وما تجره وراءها من إرهاب — تستثيره
ضميره . فما كان شعوره المرهف يتحمل أية مظلمة ، وهو الذي
عاش في أفق واسع من فرديته الحرة برغم سجونته الثلاثة — هذا
الناثر الحر الذي انتصب يدافع عن كرامة العقل ، وعن حرية الفرد
وحرية الجماعة ، قد أهاب بالانسان أن يثور على المظالم ، وطلب إلى
المفكرين الذين يساهمون في سياسة الدولة أن يتحرروا هم أيضاً

(١) فرقة من الباطنية ، والباطنية هم الاسماعيلية ، وإنما لقبوا بهذا اللقب لحكمهم
بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً . هذا هو الوجه الظاهر لدعوتهم أما الحقيقة
فهى فرقة سياسية غايتها قلب نظام الحكم . وكان رئيسها عبد الله بن ميمون . وهو فارسي
يكره العرب . استطاع أن يؤلف بين أهل الايمان وبين الزنادقة . وأن يجعل منهم
حزباً يعمل على قلب الدولة العباسية .

من الرياء الاجتماعى والألّا يكونوا آلات مسخرة فى أيدى العتاة ،
يميلون مع الهوى دون أن يستجيبوا النداء الضمير . لقد غمز الأدباء
والشعراء والخطباء — الخطباء الذين يصفون الأمير بالتقوى أيام
الجمع على حين أنه فى الهوى والضلال . .

ما أجهل الأمم الذين عرفتهم ولعل سالفهم أضل وأتبر
يدعون فى جمعاتهم بسفاهة لأمرهم ، فيكاد يبكى المنبر
نعم يكاد يبكى المنبر من ضلالات ذلك الخطيب المرائى الذى
يخدع الجماعات ويصور لها الحالة على غير حقيقتها ، لافى الشؤون
السياسية بل فى الشؤون الاجتماعية ، فيصفه بقوله :

طلب الخسائس وارتقى فى منبر يصف الحساب لامة ليهوها
ويكون غير مصدق بقيامه أمسى يثل فى النفوس ذهوها
والأدباء والشعراء . . هل يؤدون رسالتهم السامية فى هذا
المصطرع الصاخب كما يؤديها هو ؟ إن رسالة الأدب رسالة مقدسة
لا يجوز التهاون بها . . وكما غمز الخطباء المشعوذين ، فقد غمز الشعراء
المداحين الذين يتخذون الشعر آلة لتشويه الحقائق الساطعة .

بنى الآداب غرتكم قديماً زخارف مثل زمزمة الذباب
وما شعراؤكم إلا ذئاب تلصص فى المدائح والسباب

لقد اضطرب كل شيء في نظره - اضطربت مقاييس الحياة
واختل النظام ، ولم يعد ينظر إلى الحياة إلاّ هذه النظرة السوداء
البغيضة التي تنطوى فيها خيوط فلسفته التشاؤمية .

قد اختل الأنام بغير شك فجدوا في الزمان أو العبود
نعم ، كل شيء عنده يدعو إلى اليأس ، فالحياة رواية من الروايات
الكاذبة ، والإنسان يخادع أخاه الإنسان ، اليوم يرتفع به إلى
السماء ، وغداً يشك بنزاهة قصده فيبهط به إلى مواطئ الأقدام ...

حياتك هجعة : سهد ونوم ورؤيا هاجع ما أنقته
فن حلم يسرك أبطلته ومن - لم يضرك حقيقته
وكم أدى أماته إليها أمين خوته وسرقته
وقائم أمة زكته عصراً فلما أن تمكّن فسقته

هذه هي أدواء الجماعات لا تكاد ترتفع بالرجل الذي أحبته
حتى تهبط به الأرض ، لا تكاد تؤلمه حتى تعتبره رمزاً للخيانة .

وبعد ، فقد كدنا ننقل من تصوير عصره إلى آرائه في الحياة
ولكن هل هذه الآراء إلا صورة ذلك العصر بالخازي والموبات
مخازي السياسة الرعناء التي كان لها أبلغ أثر في انهيار الأمة العربية
ذلك الانهيار الذي ذاقته مرارته العصور الطوال . . نعم ، كدنا

ننتقل من تصوير الاضطراب في عصره السياسى إلى آرائه فى الحياة
تلك الحياة التى سئم أوضاعها وأضاليلها ، فنظر إليها هذه النظرة
الفلسفية المتعالية .. كيف يحتمل هذه المخازى ؟ كيف يدفع هذا
الطغيان ؟ لاحيلة له إلا الشعر — هذا ينبوع الثرى الذى يبرد غليل
الموتورين المتشائمين ..

قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها
والشر فى العالم حتى التى مكسبها من فضل عرناسها
وكل حى فوقها ظالم ومابها أظلم من ناسها
وبعد فنتساءل : وقد عاش شاعرنا الحكيم فى سجوف هذا
اليأس الحزين يهدم وينقد ويهاجم ، هل كانت له رسالة فى الحياة ؟
مالون هذه الرسالة ؟ كيف يريد أن يكون العالم ؟ لقد أراد له الخير
المحض ، وأراد له العدالة الاجتماعية المطلقة ، وأراد الهدوء المثلى
للإنسانية ، فهل تحققت رسالته ؟ كلا .. فقد اصطدمت هذه الميول
الطيبة بغريزة الإنسان ونزعتة الشريرة — فترأت له الدنيا ، فى
مرآة تشاؤمه ، وعلى ضوء الأحداث التى واجهت عصره — صورة
من المآثم والشرور ، فيئس ، وجره هذا اليأس الحزين إلى العزلة
تلك العزلة التى أنتجت للأدب الحى ثروة خالدة ترمز إلى جبروت

في سـ

واللذاذا.

سوى في يند

ومزاجه السود.

ما كان لهذه الحية

يعتبر نسيج وحده بين اداب

الكثير من الآراء والفكرات والصور التي تتدرج

ماخلده أ كابر أدباء العالم في مختلف العصور . نعم ، إننا نجد مثلاً

في حدائق أبي العلاء العابسة الكثيبة تشاؤم شو بنهور وسخرية

أناتول فرانس والكثير من هذه المذاهب والفكرات الشائعة في

عصرنا هذا ؛ ففلسفته لم تقف عند واحات الزهد والعزلة بل تعدتها

إلى الأخلاق والسياسة والاجتماع والدين والإنسان والخالق ، فأشاع

رأيه صريحاً في جميع ظواهر الحياة ، ما ظهر

الاشتراكية التي

